11 (1363/64 = 1944/45)

العددان الأول والثانى

« السنة الحادية عشرة »

(جمادى الثانى: رمضان سنة ١٣٦٣ — يوليه : أكتوبر سنة ١٩٤٤)

صحيفة دار العلوم

(١٩٣٤)

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً

خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

UNIV. BIBL. TÜBINGEN
15
ZE 83

شخصية امرىء القيس

للأستاذ على النجدى ناصف

إذا تحدث الناس عن الشعر العربى : أيه أعرق فناً ، وأكثر ابتكارا ، وأفخم بنية ، وأيه أجهر فى الزمان صوتاً ، وأشيع رواية ، وأبعد فى الأدب أثرا — كان شعر امرىء القيس حقيقا أن يذكر أولا ، وأن يجرى الحديث عنه على سنن من الاعتراف وقلة الاختلاف يندر أن يجرى على مثله فى شعر أى شاعر آخر .

وإذا تحدث الناس عن شعر الانسانية عامة ، يعلو على حدود الأوطان ، ويتحرر من قيود : الأجناس واللغات ، كان شعر امرىء القيس أيضا حقيقا أن يتحدثوا عنه ، وأن يجدوا فيه من دلائل العبقرية والاختصاص بالمزية مايجعل الحديث عنه طويلا والاعجاب به عظيما . فلامرىء القيس من العمل للشعر والتأثير فيه مالا نعرف مثله لشاعر آخر من شعراء العربية ، لقد فتح للشعراء أبوابا ، ومهد لهم سبلا ، ودلهم على أفانين فى التصوير والتعبير لاعهد لهم بها من قبل ، ثم هو قد أقام من شعره معرضاً فنياً حافلا ، تتراءى فيه سمات عصره ومعالم بيئته ، وتتمثل فيه أهواء نفسه ومواجد حسه ولمحات ذهنه واضطراب الأحوال به ، كأحسن ما يكون التمثل : صدق تعبير ، وبلاغة تأثير . ويوشك شعره من هذه الناحية أن يكون ترجمة لحياته ، واشراقه باقية فى طلمات عصره وبيئته .

ولقد يكون من الاسراف أن نقول عن أعمال امرىء القيس للشعر مثل ماقال الأقدمون عن الأوليات التى ينسبون اليه ، فنزعم أنه لم يسبق إلى شىء منها ، وأن الشعراء الذين تقدموه لم يخلفوا فى أشعارهم مايدل على أنهم عرفوها أو فكروا فيها ولكننا نعتقد أننا لانغلو ولا نجاوز الحقيقة الواقعة حين نقول أن امرأ القيس يتفرد

فى هذا المجال بمزيتين ، هيهات أن يكون له فيهما شريك أو منازع من الذين سبقوه .
الأولى أن أعماله للشعر لم تقع له عفوا بلا وعى ولاقصد ، لأنه أكثر منها ونوع فيها على نحو لا يتهيأ لغير عامل مريد . والأخرى أنه بفضل هذه الكثرة وهذا التنويع قدلفت اليها الشعراء وأغراهم باصطناعها ، فتناولوها بالتقليد والمحاكاة ، أو بالتحوير والتهذيب ، أو بالاضافة اليها والتوليد منها أو الابتكار على مثالها : كل شاعر وما تيسر له ، وكل نوع على حسب طبيعته ، فكان للشعر من ذلك خير كثير . ومن هذه الأعمال :

١ — وضع الأسس الأولى لمحسنات البديع . فقد أكثر فى شعره من التصريع ، لايختص به مطالع القصائد ، ولكن يشيعه فى أثنائها أيضا .

كقوله :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل اسحم هطال

وقوله :

أجارتنا ما فات ليس يثوب وماهو آت فى الزمان قريب

وقوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل

وقوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فاجملى

واستكثر كذلك من الترصيع أوما يقاربه

كقوله

فللساق ألهوب ، وللسوط درة وللزجر منى وقع أهوج منعب (١)

وقوله :

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٢)

---

(١) الالهوب : شدة جرى الفرس . الدرة : يراد بها الجرى اللين . المنعب : الفرس الجواد يمد عنقه فى العدو .

(٢) الايطل : الخاصرة الارخاء ، نوع من عدو الذئب . التقريب وضع الرجلين موضع اليدين فى العدو التتفل ولد الثعلب .

وقوله :

ألص الضروس ، حنى الضلوع تبوع ، طلوب، نشيط ، أشر (١)

وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام وريح الخزامى ، ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر (٢)

وقوله :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال (٣)

وقوله :

فتور القيام ، قطيع الكلا م ، تفتر عن ذى غروب خصر

وقوله :

وقافها ضرم ، وجريها حذم ولحمها زيم ، والبطن مقبوب (٤)

ونلاحظ هنا أن التصريع فى الشعر يعادل السجع فى النثر ، وأن الترصيع مزاج من السجع والموازنة جميعا . فهل كان السجع إذا هو النموذج الذى صنع التصريع على مثاله ؟ وهل كان التزامه فى النثر أو انتثاره فيه هو الذى أغرى بالاستكثار من التصريع وبثه فى خلال القصيد ؟ وهل كان السجع أيضا صنو الموازنة وقسيمها فى صنع الترصيع ؟ وهل كان الترصيع هو الحلقة الأولى والترصيع هو الحلقة الثانية فى سلسلة زخارف البديع ؟ لاشىء من هذا ببعيد . ونلاحظ هنا أيضا أن موسيقا الترصيع تجرى على نمط ما من موسيقا الطبيعة فى البادية وهذه هى الأبيات المرصعة التى أسلفنا روايتها ، عد اليها فاقرأها ، وألق بالك الى ماتحدث موسيقاها من حركات ، وترسل

---

(١) الالص الملتصق لاسنان بعضها إلى بعض

(٢) المستحر : المصوت فى السحر .

(٣) الشظى : عظم لازق بالذراع . العبل : الضخم . الشوى : اليدان والرجلان . الشنج : المتقبض النسا : عرق فى الفخذ الحجبات : رءوس عظام الوركين الفال : اللحم الذى على الورك

(٤) الوقاف الموافقة فى حرب أو خصومة الضرم : العدو الحذم الماضى الزيم : الشديد الاكتناز المقبوب : الضامر

من أنغام ، عسى أن تحس منها كما أحسست أثارة من اهتزاز الركبان على ظهور الابل جيئة وذهابا ، وعسى أن تسمع منها مثل ماسمعت صدى تجاوب الماشية الراعية ، وتنسم الريح اللاهثة ، يتناوحان على نحو مامن تقارب المسافات والأقدار ، وتماثل النغم والايقاع . فهل كانت موسيقا البادية هى ملهمة فكرة الترصيع ؟ وكان السجع والموازنة مادته فى الخلق والتصنيع : من الطبيعة كانت الروح والفكرة ، ومن السجع كان الشكل والهيئة . ربما كان ذلك .

٢ ــ التلطف فى الكناية والاحتيال لخفائها ، حتى تجىء فى بعض الاحيان غاية من غايات الأبداع ودقة التعبير . والكناية على هذه الصورة تعد فى نفسها مطلبا عسيرا ، لاينال إلا بالمرانة وطول المصابرة ، فكيف بها لجاهلى تأخذه البداوة من كل جانب ، وتوشك الجفوة من حوله أن تكون السمة الغالبة التى يتميز بها كل شىء على الرغم من بيئته الملكية الخاصة ؟ لكنها العبقرية تسمو بصاحبها على حكم الالف والعادة ، فاذا هو شىء فريد فى نوعه ، بل طرفة باكرة من طرف العجائب تبدو قبل أوانها الموعود . ومن ذلك قوله :

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

وقوله :

كأن الفتى لم يغن فى الناس ساعة اذا اختلف اللحيان عند الجريض

وقوله :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى إذلال

٣ ــ الغزل القصصى ، يصف فيه كيف دب إلى محبوبته والليل ساج والطبيعة غافية ، وكيف إستطاع فى غفلة الحراس والرقباء أن يبلغ دارها ويقتحم مخدعها ، ثم يروى الحوار الذى يدور بينهما وقد فجاها بهذه الزيارة غير مبال بخطر ولامكترث لعار فضيحة ، فهى تتساءل تساؤل الحائر المنكر أو الحاذر المشفق ، وهو يجيب أبدا جواب العابث المستهتر والمحاول المصر ، ثم لايزال يحتال لها ويهون الأمر عليها ، حتى تأنس به وتسلس له ويصير الأمر بينهما إلى مايريد . وقد حاكاه عمر بن

أبى ربيعة فى هذه الطريقه فأحسن المحاكاة ، وبلغ فى الافتنان فيها غاية مايمكن أن يبلغ الفرع من أصله والتلميذ من أستاذه ، وفى المعلقة وغيرها صور من هذا القصص، نكتفى بالإشارة إليها عن التمثيل لها.

٤ — هذه الأوليات التى يعدها القدماء له ، وينسبون فضلها إليه . ومنها فيما يقول صاحب طبقات الشعراء : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، وتشبيه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد (١) .

ولقد يخطر بالبال بادى الرأى أن استحسان هذه الأوليات إنما صدر فى بدايته عن رأى عابر أو نظرة غير فاحصة ، ثم جرى الناس من بعد على روايته والموافقة عليه دون نقد ولا مراجعه ، إيثارا لحسن الظن ، أو التماسا للعافية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، فإذا لها حرمة الرأى القديم ، يواتيه الخطر باتساع الشهرة واستجحار الرواية ، مع أنه فى الواقع لايثبت على النقد والتمحيص . نعم قد يخطر هذا وشبهه بالبال ، وقد يكون له حظ من الوجاهة والقبول ، لولا أن الواقع يخالفه كما سيأتى ، ولولا أن الشعراء أنفسهم وهم أصحاب الرأى فى الموضوع قد أكبروها منه ، وحاكوه فيها أو فى بعضها لعهده وفيما خلف من بعده إلى العصور الأخيرة .

على أننا سنقصر الحديث هنا على الأوليتين : الأولى ، والأخيرة من هذه الأوليات ، اتقاء الإطالة والتكرار .

فأما استيقاف الصحب والبكاء فى ديار الأحبة فلا أدرى كيف عدوهما من أولياته مع أنه يعترف فى قصيدة : لمن الديار غشيتها بسجام — بأن ابن حذام ، وهو شاعر طائى قديم — قد سبقه إليهما ، وأنه إنما يقلده فيهما ولا مزيد . قال :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن حذام .

اللهم إلا أن يكون امرؤ القيس بما نوع فيهما وزاد عليهما قد استحق فى رأيهم أن يختص بهما ، ويعد صاحب فكرتهما .

(١) طبقات الشعراء : ٢٧

والذى لاينبغى أن يكون فيه خلاف أياما يكن صاحبهما — أنهما تنطويان على لفتة شعرية ، هيهات أن يلتفت إليها إلا شاعر مطبوع ، ولو أنها لطول مالاكتها الألسنة وكثرة مالهجت بها الكتب تبدو شيئا غير ذى خطر ولا قيمه . فما هى إلا أن مر بدوى مرتحل بدار محبوبته ، فوقف بين أطلالها ، واستوقف صحبه معه ، هو يبكى جزعا ، وهم يبكون إسعادا له ومشاركة . وهى بهذا القدر تنطوى على أصل من أصول الشاعرية فى أسمى مراتبها . وهو التعبير الصادق عن شعور صادق أشد مايكون قوة وتوهجا . فالشاعر قد قضى بعض الوقت فى جوار الحبيب ناعما مغتبطا لكن الأقدار كدأبها لم تلبث أن فرقت بينهما ، فبدل من القرب بعدا ، ومن الأنس وحشة ، ومن الغبطة هما . حتى إذا سكنت ثائرته ، وعادت إليه نفسه أو كادت أتاحت له الأقدار فى بعض رحلاته أن يجتاز بدار الحبيب ، معهد غرامه ، ودنيا أحلامه . وهاهو ذا يدنو منها ، ويشخص ببصره إليها ، فيراها أطلالا ورسوما ، قد عاث فيها البلى ، ونالت منها الأحداث ، فإذا هى قفر خلاء ، لايرى فيها غير وحش الصحراء ، يختلف إليها ، أو يقيم فيها آمنا مطمئنا . وهاهو ذا تهيجه الذكرى ، وتلح عليه اللوعة ، ويدعوه الحنين والوفاء أن يلم بها شيئا قليلا ، ليقضى حقا لازما ، ويتمثل عهدا خاليا ، لكنه يحس ضعفا عن التجلد واحتمال ماتكلفه هذه الإلمامة من آلام ، فيتوجه إلى صحبه : يسألهم أن يقفوا معه ، ويشركوه فى بكائه ، فيستجيبوا له كراما أوفياء . وهاهم أولاء يكفون عن البكاء قبله ، لأنهم لايجدون مثل وجده ، فتدركهم له رحمة وإشفاق ، فيقبلون عليه ينصحون له أن يرفق بنفسه ، ويردها إلى الهدوء والتجمل .

وهذا هو الإحساس الطبيعى الذى تحسه الفطرة المستقيمة حين تتعرض لمثل ماتعرض له امرؤ القيس ، حين هدى إلى هذه الأولية . والتصوير الذى صورها به هو التصوير القويم ، الذى يعبر عنها فى أمانة وصدق .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى و تجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

ومن الممكن أن تجيش النفس بهذا الإحساس فى أحوال غير حال المرور بدار الحبيب ، لكنه حينئذ لا يبلغ من حدة الثورة وعنف المغالبة مثل الذى يبلغ فى هذه الحال خاصة ؛ لأن الإحساس فيها يكون عن الملابسة والعيان ، وليس كمثلهما منبه للذاكرة ، ومعين على التصور وابتعاث الخيال

وأما قيد الأوابد فأولية غريبة حقا ، لا نظن أن مثلها فى تقدير الآراء المعجلة — يخطر بالبال فى المقام الذى خطرت فيه ببال الشاعر ، فضلا عن أن تصلح لتمثيل السرعة فى بعض غاياتها ؛ لأن التفكير فى السرعة حقيق أن يخطر فى الذهن صور الخفة والانطلاق لا صور التقيد والاحتباس ، اللهم إلا كما يخطر كل معنى عارض بينه وبين المعنى الأصيل مناقضة أو شىء من المخالفة والعناد . والألمعية وحدها هى التى تستطيع بأساليبها البارعة وقدرتها القاهرة أن تفيد من مثل هذا التخالف أياما يكن نوعه ، حيث لا يظن أن فى الإمكان الإفادة منه ؛ فإذا هو على وفاق عجيب مع ما تكون فيه من شأن أو تقصد إليه من مراد . حتى لقد يبدو بعد ذلك أن ليس أصلح منه للمقام الذى حل فيه ولا للمعنى الذى اختير له . وامرؤ القيس فى اصطناع القيد هاهنا لم يشأ أن يضيف إلى معناه شيئا أو يولد منه شيئا ، لكنه اتخذ منه على علاته أداة تعبير عن معناه من تمثيل سرعة الجواد وقدرته على إدراك الأوابد . فهى فيما نظن أن الشاعر قد تصوره — لا تكاد تتبين الجواد ، وتدرك أنه يقصدها حتى تنطلق عدوا على وجهها فى طلب النجاة ، ولكنها لا تلبث أن تسمع وقع سنابك رفيقا خفيا أول الأمر ، ثم عنيفا بينا بعد ذلك ، ولا تلبث أيضا أن تسمع على الأثر جيشان صدره وتردد أنفاسه ، فيركبها الفزع ، ويثقلها الاعياء ، ويتنازعها العثار والاضطراب ، فإذا هى مقيدة حبيسة ، لم يغن عنها أنها أوابد ، وأن الأرض أمامها

براح واسعة الفجاج ، وأن المدى بينها وبين الجواد كان بعيدا فى مستهل السباق .

والآن ؛ هلم إلى جانب آخر من جوانب فن الشاعر وشخصيته ، فأظهر خصوصياته الفنية وأدلها على شخصيته — يمكن أن نجملها فى كلمة واحدة ، وهى (الاشتراكية الفكرية) ، ونعنى بها تفكيرا امرىء القيس فى قرائه ، وحرصه على أن يكون مفهوما لديهم ، ليشركوه فى المشاهدة والتذوق والاحساس . وهو يتذرع إلى ذلك بأربع وسائل : (١) التشبية (٢) والقيود (٣) والاستطراد (٤) ونحرى الحياة والوضوح فى الألفاظ .

١ — أما التشبية فقد أكثر منه ، ووفق فيه إلى غاية لا أعرف لها نظيرا فى شعر شاعر آخر . وأوضح مايرى ذلك فى المعلقة ، فقد أورد فيها أكثر من خمسين تشبيها كلها محكم سديد وربما اشتمل البيت الواحد على أكثر من تشبيه واحد ، كقوله :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل .

وقوله :

له أيطلاظبى ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان ، وتقريب تتفل

وربما شبه الشىء الواحد بشيئين اثنين ، كقوله :

كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس، أوصلاية حنظل

وقوله :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى ؛ أومساويك إسحل

وتدل تشبيهاته على سعة الأفق ، ووفرة المادة ، وقوة الملاحظة ، والاحاطة بطبائع الاشياء وكثير من خصائصها ؛ لانه يجلبها من كل مكان عرفه ، ويصطنعها من كل شىء رآه فى الطبيعة أو فى بيئته العامة والخاصة . أنظر إلى قوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوله :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل
فيالك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول

ولا أعرف له فى هذه الخاصية شبيها من شعراء الجاهلية ، فهذا زهير مثلا على ماعرف به من التروى فى نظم الشعر ، وطول الوقوف عنده ، والمراجعة له — لاتكاد تخرج تشبيهاته فى المعلقة عن إلا بل وأحوالها من اللقاح والنتاج ، والصدر والورد ، والرعى والظمء ، وما إلى ذلك من أحوال .

٢ — والقيود كالتشبية قصدا وغاية ، وإن اختلفا مكانة وعملا . هو للايضاح أو التقريب أو اثارة الحس . وهى لوضع الحدود ، وتقديرا الأبعاد ، وبيان النسب والأحوال ، وتعيين الأمكنة والاوقات ، والتفريق بين الصفات والاشكال . فهى أكثر تشعبا . وأدق مسلكا . وأشد تنويعا للمعانى . وهذا مثال من تتابعها فى قصيدة ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى :

اذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال (١)
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال (٢)
لطيفة طى الكشح . غير مفاضة اذا انفتلت مرتجة غير متفال (٣)
تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد مانام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فأنت اذ تقرأ هذه الابيات وأشباهها — لاتكاد وتحس حاجة الى السؤال عن

(١) هونة : لينة مجبال : غليظة الخلق جافة
(٢) الحقف : المستدير من الرمل . النقا : الكثيب
(٣) متفال : كريهة الرائحة

سبب شيء أو مكانه . أو الزمن الذى وقع فيه . أو الطريقة التى وقع بها . أو نحو ذلك . لان الشاعر يفكر فيك . ويعنى بك . فهو لذلك يجنبك الحيرة . ويكفيك مئونة السؤال .

٣ — والاستطراد تدفعه اليه الرغبة الملحة فى تبيين دقائق الاشياء . وتتبع خصائصها . ومنه قوله يصف نألق الحلى على لبة محبوبته :

كأن على لباتها جمر مصطل أصاب غضى جزلا وكف بأجزال

وهبت له ريح بمختلف الصوى صبا وشمال فى منازل قفال

ولقد تبلغ به الرغبة فى التبيين ، فيمضى فيما استطرد إليه : يفصل أحواله ، ويطيل الحديث عنه ، كأنه موضوع قائم بنفسه كقوله يصف فرسه :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وكان عداء الوحش منى على بال (١)

كأنى بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملال (٢)

تخطف خزان الشربة بالضحا وقد حجرت منه ثعالب أورال (٣)

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ويظهر أن هذا المذهب قد وقع من شعراء الجاهلية موقع الاستحسان ، فحاكوه فيه كما حاكوه فى كثير غيره ، ففى معلقة عنترة يصف ثغر حبيبته ، ومعلقة لبيد يصف ناقته ، ومعلقة عمرو بن كلثوم يفخر بعزة قومه وامتناع قناتهم على الاعداء ، ومعلقة الحارث بن حلزة يصف ثبات قومة للأحداث وقلة اكتراثهم لها . وفى غير ذلك من المعلقات والقصائد أمثلة للاستطراد على هذا النحو .

ولا يبعد أن يكون من أسباب الاستطراد وكثرته على ما وصفنا غلبة البداوة على العرب واقترابهم من الفطرة فى مذاهب التفكير ، فالعلم ولا ريب يهذب الفكر ، ويحدد أهدافه ، ويوضح له المسالك التى تنفذ به إلى كل هدف ، ولا كذلك البداوة

---

(١) عادى : والى . فتخاء الجناحين : طويلتها فى لين . لقوة : سريعة الخطف . طأطأ يده بالعنان : أرسلها به للركض . شملال : سريعة .

(٢) الخزان : جمع خزز كصرد ، وهو ذكر الارانب

(٣) الشربة وأورال موضعان

وإن فيما نرى من المتعلمين وغيرهم من الاطفال ومن لاحظ له من العلم لشاهدا عدلا فأولئك يعبرون عن معانيهم قصدا ، لا يكادون يميلون هنا أو هناك إلا بمقدار . وهؤلاء يكثر فى كلامهم التشعب والشرود . وربما ذهب بهم اللف والدوران إلى أبعد المذاهب وأوهنها صلة بما يبتغون .

(٤) ولقد وفق الشاعر فى انتخاب ألفاظه كل التوفيق ، بالرغم من طبيعة البيئة وأحوال العصر يومئذ ، فنحن إذ نقرأ شعره ، ونتعقب مفرداته بالتمحيص والنقد نجد جمهرتها الغالبة بل كثرتها البالغة حية سائغة ، كتب لها الخلود والتداول جيلا بعد جيل . بل نجد كثيرا منها يمتاز بحظ عظيم من العذوبة وصفاء الرونق ولطف الايقاع ، ولا تكاد تعثر بينها على ألفاظ جافية أو غليظة متوعرة إلا قليلا ، وعلى مسافات غير متقاربة ، تتلاحق بينها أنماط من المفردات الفخمة ، أو الكريمة المعرقة ، أو الحلوة الفاخرة . فان من يستطيع أن يسمو بالكثير من خواطره ومعانيه على اعتبارات الزمان والمكان — لا يتعاظمه بلا خلاف أن يبلغ مثل ذلك بالفاظه أيضا . وإنما تبدو هذه الخاصة على أشدها من التمكن والوضوح فى شعره قبل مقتل أبيه ، أما بعد ذلك فتشيع فى مفرداته السهولة واللين . ومن شعره فى الطور الأول :

وبيت عذارى يرم دجن ولجته ... يطفن بجباء للرافق مكسال (١)
سباط البنان والعرانين والقنا ... لطاف الخصور فى تمام وإكمال
نواعم يتبعن الهوى سبل الردى ... يقلن لاهل الحلم ضل بتضلال
كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال (٢)

ومن شعره فى الطور الأخير :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فأصبحت ... كخط زبور فى مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت ... عقابيل سقم من ضمير وأشجان

(١) الجباء : الغائبة عظم المرافق لكثرة لحمها .
(٢) سبأ الخمر : اشتراها .

فسحت دموعى فى الرداء كأنها كلى من شعيب ذات سح وتهتان (١)

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

هذه ملامح شخصيته الفنية ، أما شخصيته الذاتية فكانت قبل محنته فى أبيه شخصية الخلى العابث ، بل الخليع السادر ، طوعت له سعة المال وجاه السلطان كل ما تطيق الحياة الماجنة لعهده من بهجة ومتاع : نساء وخمر ، وغناء وقصف ، ولعب وصيد . ثم أغراه بها صبوة الشباب ، وغواية الأصحاب من الشذاذ والصعاليك ؛ ففتن بها ، وتهالك عليها ، لا يكاد يقف فيها عند حد ، ولا يصبر منها على لون ، ولا يبالى فى الاستمتاع بها حرمة ولا إثما . وكانت النساء أحب المتع إليه ، وأشدها فتنة له ، على ما كان يلقى فى سبيلهن من عنت ، وما كان يتعرض له من خطر . نهاه أبوه عنهن فلم يستمع له ، فنفاه وتبرأ منه . ثم كان فى دبيبه إليهن عرضة لفتك البعولة ومصاولة الحراس . فهل تراه مع هذا كله قد أعرض عنهن ؟ أو قلل من التولع بهن ؟ هيهات .

فأصبحت معشوقا ، وأصبح بعلها عليه القتام سيىء الظن والبال

يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى ، والمرء ليس بقتال

أيقتلنى والمشر فى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى

وكان فى النزوع إليهن نهما ملتهب الحس ، لا تقنعه المتعة على طريقة واحدة ، ولا يغنى فيها بحاسة عن حاسة ، بل يلتمسها من كل سبيل ، وينقلها إلى نفسه من كل سبيل كذلك : من السمع والبصر ، ومن الشم والذوق ، ومن الذكر والخيال ، لا تغنى واحدة عن أختها ، ولا يقوم بعضها مقام كلها ، فلكل أسلوب خاص فى الأداء ، ولون معين من اللذة ، ولا بد له من كل أسلوب ومن كل لون . وهو لهذا يصف محاسنهن فى استقصاء وتفصيل ، يندر أن يجاريه فيها شاعر آخر . وربما تورط من جراء ذلك فى التكرار والمداخلة . قال :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على ، هضيم الكشح ريا المخلخل

(١) الشعيب : السقاء البالى

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وقال :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل

وهو يروى أحاديثه اليهن ، وأحاديثهن اليه فى دقة وضبط ، يبدوان من هذا التساوق المطرد فى الحوار على مدار الأخذ والرد ، ثم من هذا التطابق بين المقام ومايجرى فيه من حديث :

فقالت : سباك الله إنك فاضحى ألستترى السمار والناس أحوالى

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا ، فما إن من حديث ولا صالى

ولا ينسى أن يذكر طيب رياهن ، وأن يقرن بها ماعسى أن يجانسها من الطيوب الأخر :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وله قصيدة يذكر فيها أنه ودع الصبا ، ونزع عن باطله إلا أربع خلال ، لايزال بها مولعا ، وعليها حريصا ، فجعل منها تشمم النساء حين تفوح رياهن :

ومنهن سوف الخود قد بلها الندى تراقب منظوم التمائم مرضعا .(١)

ويصف الريق فيفتن فى وصفه ويمثل طعمه ونشره والاحساس به تمثيل المتذوق المنهوم :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

يعل بهـا برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

وربما شبه المرأة بالشجرة المثمرة ، وشبه المتع التى ينالها منها بالجنى الذى يناله المجتنى من الشجرة :

---

(١) السوف : الشم

فقلت لها : سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جنائك المعلل

وهو يذكر أحوالهن معه ، وأحواله معهن فى صراحة وتفصيل ، غير مفرق بين ما يجب كتمانه ومايصح الجهر به . تنويعا للمتعة ، وتعديدا لطرائقها : يريد أن يصيبها من التصور والحكاية ، مثل ماأصابها من سواهما . وهن على باله أبدا ، حتى فى المواطن التى تقترب فيها النفس من مواقف التماسك والجد ، ويقل فيها التفكر فى المجون والمغازلة .

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى داور فى ملاء مذيل

بل إن الأحداث التى تتابعت عليه بعد مقتل أبيه لم تنسه ذكرهن ولا التشبيب بهن :

ولم ينسنى ماقد لقيت ظعائنا وخملالها كالقر يوما مخدرا

صحيح أن غزل الجاهلين يوشك أن يكون مادياً كله ، يقوم على حكاية الحال الجارية ، ووصف المحاسن المرئية ، ويقل فيه تصوير العواطف ، والافتنان فى شكوى الصبابة والغرام ولكن يظل امرؤ القيس مع ذلك متفردا فى غزله بهذه الرغبة الغالبة ، بل العرام الجامح ، تكاد تراه فى كل بيت ، بل فى كل خطرة من بيت .

أما شخصيته بعد مقتل أبيه فشخصية السيد الماجد ، ترزؤه الأيام بالخطب الجسيم ، وتتابع الأحداث من حوله بما لا يواتيه فى عناد وإصرار ؛ فيتطرق إلى قلبه الحزن والألم ، وقد يتحرك لسانه بالتململ والشكوى ، ولكنه أبدا معتز كريم ، لا يتخشع ولا يستسلم بل لا يكاد يفتر عن الدأب والمحاولة ، ولا يقنع بما دون الغاية من أمره ، فان يظفر بها كاملة ، وإلا فبحسبه أنه أبلى عذراً :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان بدلت آخرا

كذلك جدى : لا أصاحب صاحبا من الناس ، إلا خاننى وتغيرا

وقال : فإما ترينى لا أغمض ساعة من الليل إلا أن أكب فأنعسا

فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

(١) القر : الهودج . مخدرا : مستورا : يشبه ثياب الظعائن بستائر الهودج .

وربما نزل به الخطب فى محنته هذه ، فيزيده إلى مابه منها وإنه لكثير ، فيلقاه هازئا متهكما ، يفتر ثغرة عن ابتسامة حزينة فاترة ، ولكنها راضية مطمئنة . روى أن نفراً من بنى نبهان خرجوا على رواحل له ، يطلبون إبله التى أغير عليها وأخذت حين كان فى جوار المعلى بن تيم ؛ فغلب أولئك النفر على الرواحل أيضا وعادوا إلى الشاعر الحزين بلا شىء ؛ فأعاضه الناس منها أعنزا ، جمعوها له ؛ ليحلبها ، ويعيش من ابنها ، فقال فى ذلك :

إذا مالم تجد إبلا فمعزى كأن قرون جلتها العصى
إذا ماقام حالبها أرنت كأن القوم صبحهم نعى
فتملأ بيتنا أقطا و سمنا وحسبك من غنى شبع وري(١)

والذين عابوا امرأ القيس فى هذه الأبيات من قدامى النقاد — إنما عابوه فيما يظهر لأنهم قرنوها ببيتيه المشهورين : ولو أن ماأسعى لأدنى معيشة . . . ، فرأوه هنا بعيد الهمة ، عظيم الخطر ، ورأوه هناك كما وصفوه . أعرابيا فى شملته ، لاتجاوز همته ماحوت خيمته . ولو أنهم قرنوا هذه الابيات بالحوادث التى تقدمتها ، والمناسبة التى قيلت فيها لتمثل لهم امرؤ للقيس كما تمثل لنا : هازئا متهكما ، لاقانطا مستسلما ، ولاقانعا قعددا (٢).

ويرى بعض الباحثين من المعاصرين أن امرأ القيس فيما يظهر من حاله كان وثنيا ، لايخلص لوثنيته ، ولايحترمها حق الاحترام (٣). ويستدلون لذلك بأنه وهو منصرف من اليمن صادرا عن قرمل بن الحميم مربتبالة (٤) ، وكان بها صنم تعظمه العرب ، يقال له : ذو الخلصة ، فاستقسم عنده ثلاثا . وكان كلما أجال القداح خرج الناهى ، فلما كانت الثالثة جمع القداح فكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وقال : لو أبوك قتل ماعقتنى (٥) .

(١) الاغانى : ٨ : ٦٨ .
(٢) الموشح للمرزبانى : ٣٧ (٣) المفصل : ١ : ٥٢
(٤) بلدة خصيبة باليمن ، يقال ان الحجاج ولى عليها فاتاها فاستحقرها فلم يدخلها فقيل : أهون من تبالة على الحجاج .
(٥) الاغانى : ٨ : ٦٨

وعندى أن هذا الحادث وحده لايكفى دليلا لما استدلوا به عليه ؛ فقد كان الرجل يومئذ حزينا موتورا ، وحانقا مغيظا . قتل أبوه على الصورة المثيرة التى يصفها الرواة، وسعى اليه الساعون من أهل الرأى والبقيا على السلام ، يبتغون عنده الصلح فى خلال عرضوها عليه ؛ فأبى إلا الحرب والانتقام ؛ ثقة بقومه ، وإدلالا بما عنده من سلاح وكراع ، وذهابا بنفسه وأبيه عن معرة الفدية والبراء بأى قتيل . فلما جد الجد تخاذل الناس عنه ، وخلوا بينه وبين واتريه قبل أن يبلغ من الثأر مايريد .فاذا جرت الازلام مع ذلك بما يثبط العزيمة ، ويحض على التراجع والاعراض كانت الخيبة مرة ، وكان وقعها على النفس ولاسيما الشاعرة — عنيفا مثيرا ، لايبعد أن يخرج بالانسان عن مالوف طبعه وعاداته فى القول والعمل . فامرؤ القيس بما فعل فى هذا الموقف ،وبين هذه العوامل لم يكن بدعا فى كثير من الناس ، وليس الذى فعل بدال على شىء دلالته على الهياج وضيق الحيلة .

وبعد ، فقد رزق امرؤ القيس فى تاريخ الأدب من بعد الصيت ، وتجدد الذكر، وحفاوة الادباء - مايكافىء عبقريته ، ويتفق مع سمو منزلته . فما نعرف كتابا فى الادب العام ، أو فى أى فن من فنونه إلا ذكره أو وقف عنده قصدا أو عرضا . ذلك إلى الكتب المؤلفة فى أصناف العلوم الاخرى على النمط المأثور من إيراد الشواهد والنصوص للاحتجاج والتأييد . ولم يكن قدامى المؤلفين فى الادب أوفريق منهم على الاصح حياله رواة جامعين فحسب ، ولكنهم كانوا نقدة دارسين أيضا ، يتناولون بعض أنبائه وأشعاره بالفحص والموازنة ، فما صح لديهم قبلوه ، ومالم يصح نبهوا اليه . ففى شرح المعلقات السبع للزوزنى ، وشرح المعلقات العشر للتبريزى أن أربعة الابيات التى أولها :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل

ليست فى رأى أكثر الرواة من معلقة امرىء القيس ، ولكنها منقولة اليها ومقحمة فيها من شعر تأبط شراً . ويقول صاحب الاغانى عن قصيدة : طرقتك هند بعد طول تجنب . . . ، وهى مما ينسب الى امرىء القيس من شعر .

واظنها منحولة ؛ لانها لا تشاكل كلام امرىء القيس [١] . . . ويقول أيضا عن قصة انحياز هند بنت حجر الى عوير بن شجنة بعد مقتل أبيها : وقال ابن قتيبة فى خبره إن القصة المذكورة عن عوير كانت مع أبى حنبل وجارية بن مر [٢] . وروى المرزبانى فى الموشح عن الرياشى قال : يقال إن كثيرا من شعر امرىء القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه ، مثل عمرو بن قميئة وغيره [٣] ، ويقول المعرى فى رسالة الغفران على لسان ابن القارح فى حديثه مع امرىء القيس : ياأبا هند ، أخبرنى عن التسميط المنسوب اليك : أصحيح هو عنك ؟ وينشد الذى يرويه بعض الناس :

ياقوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
فى القلب ثم ارتقى فهد بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيقول : والله ماسمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه . وإن الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام . ولقد ظلمنى وأساء إلى [٤] . .

ولو علم هؤلاء السادة المحققون أن وجود امرىء القيس كان مثار خلاف أوشك ان تحدثوا عنه ، أو أشاروا اليه . ولكنهم فيما نعلم لم يفعلوا من ذلك شيئا لا تصريحا ولا تلويحا . وما نقصد بهذا أن القدماء قد وفوا امرأ القيس حقه بحثا ونقدا ، فلم يبق للناس من بعدهم الا أن يروا فيه رأيهم ، لاخلاف ولا تعقيب . وانما نقصد أن الشك فى وجوده ، ثم رفض المروى من أنبائه وأشعاره الا شيئا يسيرا من أفكاره ومعانيه [٥] ، على ماله من خطر الشأن ، واتساع الشهرة فى التاريخ جيلا بعد جيل — نقصد أن كلا هذين ليس من القضايا الهيئة التى يسهل الفصل فيها على هذا النحو من الاطلاق الذى لاتحفظ معه ولا قيد . أما الشك فى بعض أنبائه أو بعض القصائد المنسوبة اليه ، فأمر يسير على كل حال ، مهما يكن الطريق اليه والرأى فيه .

(١) المصدر نفسه : ٧٠
(٢) المصدر نفسه : ٦٦
(٣) الموشح للمرزبانى : ٣٤
(٤) رسالة الغفران : ١٨٠١
(٥) راجع كتاب فى الادب الجاهلى

صحيح أن الرواة يختلفون قليلا أو كثيرا فى نسبه ، وفى رواية شعره ، وبعض تفاصيل حياته . ولكن ماذا فى هذا ؟ أليس هو الخلاف السائغ المألوف ، الذى يتفق مع منطق الاشياء وأحوال البيئة ؟ بل أليس هو الخلاف الذى لايدعو الى الريبة والحذر فى البحث عن الحقيقة كما يدعو اليها الاتفاق فى بعض الاحيان . ان عصر الشاعر كما لايخفى - كان بعيدا من عصر التدوين ، وأن الناس كانوا طوال هذه الحقبة ولا معول لهم فى المعرفة ونشر الآثار الادبية غير التحمل والرواية . ولايغرب عن البال مبلغ ماتعرض له الحقيقة حينئذ من ضروب العلل والآفات . ولكن هذا وحده لاينبغى أن يكون مدعاة لشك أو إنكار . فهذه أحاديث الرسول عليه السلام يختلف المحدثون فى روايتها ، وقد يشتد الخلاف بينهم فيها بعض الاحيان ، مع أنهم كانوا فى العناية بها والحرص على ضبط نصوصها بالموضع الذى لامطمع بعده فى زيادة لمستزيد . وقد اتفق الناس على العمل بها ، واستنباط الأحكام منها فى أمور الدين والدنيا جميعاً .

ثم إنه لاتكاد تسلم شخصية من شخصيات التاريخ القديم والحديث من خلاف فى شأن من شئونها العامة أو الخاصة ، مهما تبلغ من الشهرة ، ومهما يبلغ أمرها من الضبط والوضوح . وسيظل هذا دأب الناس أبدا ، رضوا أم لم يرضوا ؛ لاسباب وملابسات ليست منا الآن بسبب ، ولا هى مما يتسع له المقام هاهنا . وقصة خروج الفرزدق فى يوم مطير الى ضاحية البصرة ، وحديثه الى النساء اللاتى كن فى الغدير اذ ذاك إن دلت على شىء فعلى أن الشاعر كان يعلم قصة يوم دارة جلجل ، وأنه رأى حاله مع النساء فى يومه هذا تشبه حال امرىء القيس مع العذارى فى يومه ذاك . أما أنها تدل على أن الفرزدق هو صاحب غزل يوم دارة جلجل المنسوب الى امرىء القيس فى معلقته فلست أراه رأيا ، ولا أعرف له وجها . فأين الاستشهاد بشىء والحديث عنه من مقارفة فعله ؟ ان هذا شىء وذاك شىء آخر ، والفرق بينهما كبير . ولو صح أن يكونا شيئا واحدا ، أو شيئين متلازمين للزم أن يكون كل من تحدث عن عمل من أعمال امرىء القيس أورى شيئا من شعره يكون هو صاحب هذا العمل أو ناظم هذا

الشعر . على أنه كيف تصح نسبة هذا الفحش الى الفرزدق وقد كان شاعراً اسلاميا والدولة القائمة عربية محافظة على خصائص العرب ، ولا تصح نسبته الى امرىء القيس وقد كان شابا جاهليا فارغا ، لفظه أبوه وأقصاه عنه ، لما رأى من تهالكه على النساء وانصرافه عن معالى الملك الى المجانة واللهو ؟ ومع ذلك لا نرى مشابهة هناك بين شعرى الشاعرين فى الطريقة والاسلوب

أما القصص الغزلى الذى فى شعر امرىء القيس فشبيه ولا شك بقصص عمر بن أبي ربيعة فى شعره ، ولكنه ليس به ولا من صنع صاحبه ، وانما كان خطوة سابقة فى هذا المذهب ، خطاها امرؤ القيس ، وأعجبت عمر ، فقصد قصدها ، وأضاف اليها خطوات وخطوات ، كما ذكرنا فى صدر هذا المقال . فلكل من الشاعرين أسلوب متميز يدل عليه ، وأسماء خاصة يذكرها فى تشبيبه ، وبحور معينة يؤثر موسيقاها ، ويستكثر من النظم على أوزانها . والشعر الذى ينسبه الثقات الى امرىء القيس يفسر حياته ، ويلائمها ملاءمة ملحوظة (١) ، ويجرى فى جملته على أنماط متشابهة من طرائق التفكير ومآخذ الخيال ومذاهب الإبانة والتعبير .

وشىء آخر يدل على وجود الشاعر ، وتسلسل أنبائه وأشعاره الى عصر التدوين والتصنيف : أنه قد جرى ذكره فى بعض أحاديث الرسول وفتاوى الإمام على فى الشعر فقد خرج أحمد فى مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء الى النار (٢) . وسئل على رضى الله عنه : من أشعر الشعراء ؟ فقال : ان القوم لم يجروا فى حلبة تعرف الغاية عند قصبتها ، فان كان ولا بد فالملك الضليل (٣).

---

(١) انظر الادب العربي وتاريخه فى العصر الجاهلى

(٢) مختصر شرح الشواهد للعينى : ٨

(٣) بهجة قلوب الابرار : ١٧٣

وهيهات أن يحكم الرسول هذا الحكم ، وأن يجيب على هذا الجواب عن شخص ليس له وجود سابق وليست له أنباء معروفة ، ولا أشعار مروية . وإلا فكيف يسيطر شخص من عالم الوهم والخرافة على أشخاص من عالم الواقع والحقيقة ، فيقودهم إلى النار على ماجاء فى حديث الرسول ، ويكون له السبق فيهم حين المفاضلة والتميز على ماجاء فى فتوى الإمام ؟ ثم كيف يفهم السامعون أسرار حكم الرسول عليه ، وأسرار حكم الإمام له إذا كانوا لايعرفون عنه أنباء ولا يروون له أشعارا؟

إذا لقد وصلت أشعار امرىء القيس وأنباء حياته إلى مبعث النبى ﷺ ، ثم إلى السن التى بلغ فيها على رضى الله عنه مبلغ الفتيا فى الشعر والمفاضلة بين الشعراء لم تذهب بها الأحداث ، أو يطغ عليها النسيان أو ينقطع بها التسلسل حتى حين هدأ الشعر وفترت حركته ، بسبب انصراف الأذهان إلى الدين الجديد ، واشتغال الناس بنشر مبادئه ، وتأسيس دولته . فقد روى صاحب العقد الفريد (١) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا خلوا فى مجالسهم يتناشدون الشعر ، ويتحدثون بأخبار الجاهلية . فأولى إذا أن تصل هذه الأنباء والأشعار بعد عصر الخلفاء الراشدين وعودة الشعر إلى يقظته ونشاطه إلى عصر التدوين والتصنيف

ومن الخير أن نختم هذا البحث بملاحظة قيمة للكاتب الأديب الأستاذ محمد هاشم عطية . قال : ولئن جاز فى عقل أحد أن يشك فى شىء من هذه الأشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق الشك اليهم أو تتصل التهمة بحياتهم . ولقد روى شعره ثمانية من ثقات الرواة ، ودونوه وتناولوه بالانتقاد والشرح ، منهم أبو عمرو ابن العلاء أحد القراء السبعة ، وأبو سعيد بن قريب الأصمعى ، والإمام ابن السكيت وغيرهم (٢) ..

على النجدى ناصف
مدرس بدار العلوم

---

(١) العقد الفريد : ٣ : ٤٧
(٢) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى : ١٦٠

نفى النفي تأكيد للنفى

للدكتور ابراهيم انيس

نعم : لغويا نفى النفى تأكيد للنفى ، وليس كما شاع بين القدماء من النحاة أن نفى النفى إثبات .

أما من الناحية المنطقية والرياضية فالقضية الشائعة سليمة لاغبار عليها وليس لنا أن نعترض على قول الرياضيين حين يرمزون إلى هذه القضية برموز فيقولون مثلا — (— ٣) = ٣ . وكذلك فى القضايا المنطقية ، نستطيع بسهولة تصور صحة تلك القضية الشائعة التى طالما سمعناها من أفواه أساتذتنا يرددونها فيقولون « نفى النفى إثبات » !

ولكن للغات منطقها الخاص ولأساليبها طرقها الخاصة التى يجب عرضها وتفسيرها لا فى ضوء المنطق العام أو الرياضة بل فى ضوء المنطق اللغوى والاستعمال اللغوى ، وفى ضوء العوامل النفسية التى قد يتأثر بها المتكلم والسامع حين التعبير عما يدور بخلد كلٍّ منهما بأسلوب لغوى خاص .

واللغات ليست إلا أحد المظاهر الاجتماعية . ولهذا تخضع فى تطورها إلى تلك القوانين الاجتماعية التى لا تطابق دائما القوانين العقلية من منطقية أو رياضية . فقد تؤدى المقدمات المنطقية إلى نتيجة حتمية ولكن اللغات وقد تشعبت عواملها وظروفها وصعبت الاحاطة بجميع تلك العوامل والظروف تسلك طريقاً غير طريق المنطق العقلى ولا يلازمها الاطراد فى كل عناصرها بل لابد فيها مما يسمونه بالشذوذ ومخالفة القاعدة العامة وليس مثل هذا بحائر فى علم المنطق أو الرياضة .

تلك هى الناحية التى أخطأها البصريون حين أرادوا أن يصوروا لنا الأساليب

اللغوية مطردة فى كل تفاصيلها وألجأهم هذا إلى التأويل والتخريج لكل ما روى مخالفا لأقيستهم .

فالمظاهر الاجتماعية لاتخضع للقوانين العقلية المنطقية أوالرياضية فى كل تفاصيلها واللغات ليست إلا أحد تلك المظاهر الاجتماعية

والنفى فى اللغات رغم أنه معنى عقلى مشترك بين جميع العقول عبرت عنه اللغات بسبل وأساليب لاتطابق الأساليب المنطقية أو الرياضية .

فقد يريد المتكلم أن ينفى جملة من الجمل أو معنى من المعانى وقد تدفعه حالته النفسية أو ظروف الكلام إلى تأكيد هذا النفى فيكرر أداة النفى مثنى وثلاث ورباع وقد شاهدت هذه الظاهرة اللغوية ، فى كل لغات العالم . ولست أعرف لغة من اللغات تعبر عن نفى النفى الذى ينتج الاثبات بأى أسلوب من الأساليب أللهم إلا أن نلجأ للتعسف والتكلف . بل ان أساليب الاثبات فى كل لغة واضحة جلية ووسائل تأكيد الاثبات واضحة جلية أيضا أما تأكيد النفى فيغلب أن يكون بتكرار أداة النفى فى موضع ما من الجملة يختلف بين لغة وأخرى .

والنفى وهو معنى عقلى تعبر عنه كل لغات البشر يعد من أقدم الظواهر اللغوية بل ربما كان أقدمها . فالطفل الذى عرف البكاء قبل الضحك وعبر عن النفور قبل التعبير عن الرضا يلقى لنا ضوءا على نشوء النفى فى لغات البشر . وإن اشتراك أداة النفى بين معظم اللغات لما يؤيد ما نذهب اليه من أن النفى من أقدم الأساليب اللغوية فالأساس الصوفى لأداة النفى فى معظم فروع الفصيلة الهندية — الأوربية . هو صوت النون وفى الفصيلة السامية هو صوت اللام . وقد جمعت العربية بين الأساسين فأحيانا يكون فيها أساس أداة النفى «اللام» وأحيانا يكون «النون» ثم زيد عليهما صوت ثالث شبيه بالنون واللام وهو الميم . ولم تنفرد العربية بهذا الصوت الأخير بل شاركها فيه لغات بشرية أخرى .

فنحن نرى أن الأساس الصوتى لأداة النفى هو أحد الأصوات الثلاثة اللام والنون والميم ويندر أن تشذ لغة من لغات العالم عن هذا

ويجب ألا نتلمس علاقة طبيعية بين هذه الأصوات الثلاثة . وبين النفى الذى

هو معنى عقلى كما يفعل اللغويون فى تفسير الكلمات التى تظهر علاقة صوتها بمعانيها كالحفيف والزفير وغير ذلك من تلك الكلمة التى يسميها الغربيون Onomatopoeia بل يكفى إذا كان لابد من تفسير ظاهرة التعبير عن النفى بأحد تلك الأصوات أن نقول إن النفى من أقدم الأساليب اللغوية وتلك الأصوات أقدم الأصوات الساكنة فى لغة الانسان الأول . وليس لدينا من دليل على مانزعم سوى الطفل فى مراحله الاولى قبل أن تنمو فيه ملكة التقليد للغة من حوله بل تصدر الاصوات منه فى شكل غريزى ليس للبيئة أثر فيها .

فالطفل فى مراحله الاولى تظهر عليه مظاهر النفور قبل الرضا كما تكون اللام والنون والميم مجموعة من الاصوات الساكنة هى أسبق أخواتها فى النطق بها . فلعل الانسان الاول استغل تلك الاصوات الثلاثة التى كانت أسبق الأصوات الساكنة فى نطقه لعله استغلها فى التعبير عن ذلك المعنى العقلى أعنى النفى الذى هو قديم كقدم الانسان كما استغلها فى ظواهر لغوية أخرى بطبيعة الحال .

وليس يغنى عنا شيئا أن نتلمس دليلا من لغات الأمم الأولية بصدد هذه الظاهرة فالأمم مهما توغلت فى البداوة لا تمثل لغتها إلا مرحلة متأخرة جدا من مراحل نشأة الكلام .

فالعلاقة التى يمكن أن نتلمسها بين اللام والنون والميم وبين النفى يجب ألا تعدو القول إن كلا منهما قديم متوغل فى القدم .

وإذا صح أن الطفل يمثل فى أسابيعه الأولى مرحلة من مراحل نمو اللغة عند الانسان الأول — وهو ماينادى به كثير من المحدثين — كان تصورنا لنشوء النفى واشتراك أداته بين معظم لغات العالم مبنيا على أساس علمى صحيح .

وللبرهنة على مانحن بصدده من أن نفى النفى لغويا تأكيد للنفى ، علينا أولا أن نضرب أمثلة قديمة وحديثة من لغات متباينة أوربية ، وغير أوربية ، توضح ماننذهب اليه من أن المرء إذا شاء تأكيد نفيه كرر الأداة . ففى الانجليزية القديمة :

« Nan man nyste nan nothing »

ومعنى هذه الجملة بالانجليزية الحديثة مترجمة ترجمة حرفية هو :

No man not knew nothing.

وفى انجليزية القرون الوسطى نرى بين أقوال تشوسر :

He neuere yet no vileyne ne seyde in al his lyf unto no maner wight.

ومعنى قول تشوسر مترجما ترجمة حرفية إلى الانجليزية الحديثة هو :

He never yet no bad thing no said in all his life to no man whatsoever.

ومن الانجليزية الحديثة يقول Hardy فى إحدى رواياته مستعملا أحد الأساليب الشائعة بين العامة :

I Can't do nothing without my staff

بل إن أولئك الذين عاشوا فى انجلترا بعض الزمن قد سمعوا هذا النوع الشائع من الاستعمال الذى يحارب فى المدارس دون جدوى لأنه مع شيوعه متأصل فى تاريخ اللغة الانجليزية . فالعامة يكررون أداة النفى لمجرد تأكيد النفى . فكثيرا ماسمعنا الانجليز يقولون :

I haven't done nothing.

وكذلك نلحظ هذه الظاهرة فى اللغة الفرنسية مثل :

On ne le vot it nulle Part .

كما نصادفها فى الاسبانية والألمانية ، بل وفى العنصر السلافى أيضا كالروسية . وكذلك فى الأغريقية قديمها وحديثها . فاذا انتقل الباحث إلى بيئة لغوية ، غير الفصيلة الهندية ــ الأوربية رآها أيضا فى اللغات الأولية فى وسط جنوب أفريقيا كالبانتو أو بعبارة أدق إحدى لغات البانتو ، الكنغو ، مثل :

كفنجيدى كوندى ووليكو كوناجا كوندى . نجنزيكو كيلنجا كواكو .

ومعنى هذه العبارة حرفيا :

مافعل هو لاشرا ماشعر هو لا بألم

ماهم مامرضى = مافعل شرا . ماشعر بألم ماهم مرضى .

كيف يمكن إذن أن نفسر هذه الظاهرة التى شاعت فى الغالبية . العظمى للغات العالم ؟ .

هناك حقيقة يجب أن نتذكرها دائما لنستطيع تفسير هذه الظاهرة التى نحن بصددها وتلك الحقيقة هى أن تكرار أداة النفى لتأكيد معناه يقع دائما فى تلك اللغات التى صغرت فيها الأداة فأصبحت مكونة من صوت ساكن واحد مثل n أو ne وهكذا .

فى تلك اللغات يغلب اتصال هذا النوع من الأداة بالكلمة التى تليها فلا يستطاع تمييزها منها إلا بمجهود عقلى يفر منه عادة الرجل العادى . ولهذا مال الناس فى كلامهم إلى الرغبة فى تكرار الأداة فى مواضع مختلفة من الكلام الواحد لاظهار أهمية النفى وتأكيده فى ذهن المتكلم والسامع خشية أن تغمر أصوات الجملة ذلك الصوت الضئيل الذى يعبر عن النفى فلا يلتفت إليه .

من أجل هذا يعمد المتكلم تحت تأثير شعور قوى إلى تكرار الأداة ليجعل النفى مؤكدا لامجال للشك فيه .

وتتضح أهمية هذا التفسير حين نعرف أنه لما طالت أداة النفى فى الانجليزية ، فأصبحت not وفى الالمانية nicht قل تكرارها فى الجمل . ولكن انكماش أداة النفى الانجليزية not إلى n't فى ألسنة العامة أعاد إلى الكلام تكرار الأداة فتسمع الآن تكرارها فى جمل مثل :

I haven't said nothing .

هذا إلى أن الأداة الواحدة فى الجملة الطويلة ، تتطلب مجهودا عقليا من المتكلم والسامع . فلا بد من تذكرها خلال الحديث وقد يطول الكلام فينسى أنه بدأ بأداة نفى . ولهذا يحرص المتكلم والسامع على تكرارا لأداة التعيد إلى ذهن كل منهما معنى النفى الذى أوشك أن يغمره طول الكلام

أسائل نفسى بعد هذا الشرح ما نصيب البيئة اللغوية السامية من هذه الظاهرة ؟

سأحاول فى هذا المقال أن أبين ظاهرة نفى النفى فى اللغة العربية . دون التعرض لأخواتها السامية ، التى أرجىء البحث فيها لفرصة أخرى .

أصبحت الآن أرجح أنه قد أتى على اللغة العربية طور لغوى شاعت فيه ظاهرة نفى النفى لمجرد تأكيد النفى وأن العربى القديم لم يعمد إلى هذا إلا لحرصه على إظهار معنى النفى وتوضيحه لاستصغاره الأداة التى كانت مجرد « لا » أو « ما » أو « إن » وفى كل من هذه الأدوات الثلاث تتركب الأداة من صوت ساكن واحد هو اللام أو الميم أو النون . فاتخذت اللغة من أجل هذا أحد طريقين إما تكرار الاداة فى مواضع مختلفة من الجملة أو تكوين ما أسميه بأداة النفى المركبة .

وقد رويت لنا اللغة العربية . وفيها صور كثيرة لأساليب تكررت فيها الاداة كما رويت لنا الادوات المركبة . وقد استطاع النحاة تفسير معانى بعض أدوات النفى وغفلوا عن تفسير البعض الآخر لعنايتهم بعملها الاعرابى .

فأدوات النفى فى اللغة العربية . إما بسيطة وهى « لا » ، « ما » ، « إن » ، أو مركبة من أكثر من واحدة من هذه الادوات مثل : لن . لم . إلا . ما إن . فالأولى مكونة من أداتى النفى لا ، إن والثانية من « لا » ، « ما » والثالثة من « إن » ، « لا » والرابعة من « ما » ، « إن » والقسمة العقلية . تقتضى أن يكون بين الادوات المركبة أداتان مركبتان غير الأربعة السابقة هما « إن ما » ، « مالا » ولست أعرف نصا عربيا استعمل فيه مثل هاتين الاداتين المركبتين للتعبير عن النفى .

والنحاة فى تفسيرهم للأدوات المركبة الأربعة عنوا العناية كلها الناحية الاعرابية فاهتموا بجزم المضارع بلم وبنصبه بلن . وألفوا بابا مستقلا سموه الاستثناء بإلا . ثم جاءوا إلى « ما إن » فقالوا إن « إن » زائدة حين أعياهم تفسير هذه الاداة المركبة الظاهرة التركيب .

ولا شك أن النفى بأداة مركبة آكد وأقوى من النفى بأداة بسيطة وتشترك جميع الأدوات المركبة فى صفة واحدة وهى أنها جميعا تفيد تأكيد النفى وأن النفى معها آكد من نفى بأداة واحدة . ولكن الاستعمال اللغوى فرق بين تلك الادوات

المركبة فاختصت كل منها بناحية تنظيمية Syntactical . فمنها مايختص بالماضى ومايختص بالمضارع ومنها مالا عمل له فى الجملة إلا مجرد النفى ومنها أداة تنفى مابعدها وأخرى تنفى ماقبلها وسيأتى بيان هذا النوع الأخير . على أن الادوات المركبة رغم تلك الخصائص فى الاستعمال تشترك جميعا فى أنها تنفى نفيا مؤكدا .

وقد أجمع النحاة على أن النفى « بلن » آكد . بل بالغ بعضهم فجعلها لتأبيد النفى مما هو معروف فى كتبهم . ولكنهم حين تعرضوا للمقارنة بين النفى « بما » و « بلم » لم يهتدوا إلى قوة « لم » من ناحية النفى واهتموا فقط بجزمها وبزمن الفعل معها اللهم إلا تلك الاشارة المقتضبة التى رويت فى كتاب سيبويه والتى لاتستند على نص عربى واضح حين قال فى صفحة ٤٠٨ من الجزء الأول :

إذا قال فعل فنفيه لم يفعل

وإذا قال لقد فعل فنفيه مافعل

لأنه كأنه قال والله لقد فعل فقال والله ما فعل » .

فيفهم من قول سيبويه أن النفى « بما » آكد من النفى «بلم»

ولعل هذا السهو الذى وقع فيه سيبويه لم يكن إلا نتيجة اختصاص « ما » بوقوعها فى جواب القسم بخلاف « لم » التى لا تكون جوابا للقسم .

على أن التوكيد فى حالة « ما » مع القسم ليس من عمل الأداة وإنما هو من عمل القسم الذى لا ينكر أحد أنه يؤكد معنى الجملة نفيا وإثباتا فالنفى بما الذى يحتاج فى توكيده إلى القسم لا شك أضعف من النفى «بلم» التى لا تكون جوابا للقسم .

ألا ترى إلى الآية الكريمة :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » .

ولا شك أن المجال هنا مجال توكيد عدم إيمانهم .

وإن استقراء الأساليب العربية سيؤيد ما أذهب اليه من أن النفى « بلم » آكد من النفى بأداة بسيطة مثل « ما » . على أن قوة الأداة وضعفها خاضع للتطور اللغوى فقد نجد بعض الأمثلة التى استعملت فيها « لم » ولا نلمح فيها تأكيدا للنفى . وذلك لأن الطور الذى نرجح أنه مر على اللغة العربية وفيه استعملت الأدوات المركبة

لتأكيد النفى قديم بعيد فى القدم . فليس غريبا أن نجد النفى « بلم » قد فقد شيئا من قوته فى بعض الأمثلة العربية التى رويت لنا .

أما « إلا » التى خصصت بالاستثناء فأذا أمعنا فى النظر فى معناها وجدناها لا تخرج عن النفى المراد به تأكيد النفى . وقد تنبه بعض النحاة لشىء من هذا مثل ابن يعيش حين يقول فى باب الاستثناء : « فإلا تخرج الثانى مما دخل فى الاول فهى شبه حرف النفى فقولنا قام القوام إلا زيداً بمنزلة قام القوم لازيد »

ولهذا يجب ألا نفهم من أمثال الآية الكريمة « وما محمد إلا رسول » أنه تعالى يريد أن يؤكد الرسالة لمحمد . فطرق التوكيد فى حالة الاثبات لها وسائل أخرى كالقسم وإن وغير ذلك ، بل المراد من الآية نفى أية صفة أخرى عن محمد . ومثل هذا الاستعمال له مجاله ومقامه . وقد استعمل هنا لدفع الشك فى نسبة صفة أخرى لمحمد .

على أن شيوع « إلا » فى الاستعمال جعل لها صفات خاصة ليست لغيرها من أدوات النفى المركبة . ولهذا أفردت لها الأبواب وخصصت باستعمالات جمعها السيوطى فى كتابه الاتقان فقال « وهى على أوجه أحدها الاستثناء متصلا أو منقطعا والثانى أن تكون بمعنى غير والثالث أن تكون عاطفة والرابع بمعنى بل »

وفى معظم هذه الأوجه لا تخرج « إلا » عن أن تكون أداة نفى مركبة

أما « ما إن » فلا معنى لأن نفر من تفسيرها كأداة مركبة للنفى ونقول كما فعل النحاة إن « إن » زائدة

وهذه الأداة لم ترو لنا على تلك الصورة القديمة — أعنى ما إن — فى القرآن الكريم ولكن رويت لنا فى الاشعار القديمة مثل قول عبدالله بن ثعلبة الحنفى :

وما إن يزال رسم دار قد اخلقت ويبت لميت بالغناء جديد

أما الصورة الجديدة لهذه الاداة المركبة فهى « من » التى تفيد التنصيص على العموم فالمراد بقوله تعالى : « وما يخفى على الله من شىء » تأكيد نفى الخفاء على الله أيا كان قدره .

وليس يعنيني شرح كيف تطورت « ما إن » إلى « من » بل يكفى أن أرجح أن همزة « إن » سهلت أولا ثم انكمشت الاداة لكثرة استعمالها فكان حقها أن تصبح « من » بفتح الميم ولكن التباس « من » الاسمية بالحرفية جعل القياس يلعب دوره . فقيست هذه الأداة بمن الجارة التى تشاركها فى الحرفية وتنطق بها « من » بالكسر .

والقياس اللغوى يلعب دوراً كبيراً فى تشكيل كثير من المظاهر اللغوية حتى فى لغة الاطفال مما هو معترف به بين المحدثين من علماء فقه اللغة philology هذا إلى أن « من » هذه قد اختلفت أيضا عن « ما إن » فى موضعها من الكلام .

بقيت كلمة أخيرة وهى أن الميم التى هى أحد أصوات الشفة قد قلبت أحيانا إلى صوت شفوى آخر وهو الباء فى أكثر من ظاهرة لغوية . فنحن نعرف هذا فى اللهجات العربية القديمة وهو يروى لنا فى كتب الاقدمين كلهجة شائعة فى قبيلة مازن فيقولون (بالسمك) فى (ما اسمك) :

ولهذا يرجح عندى أن صوت الميم فى أداة النفى (ما) قد قلبت (باء) فى بعض اللهجات القديمة وأدى هذا إلى استعمال الباء أداة نفى . وهو ما نرى أثره ظاهرا فى خبر ليس و(ما) .

وقد أجمع النحاة على أن النفى مع الباء فى خبر ليس « وما » آكد منه بدونها وإن ضلوا الطريق السوى فسموها مع هذا زائدة !! فالمراد من قوله تعالى « وما ربك بظلام للعبيد » ليس إلا تأكيد نفى الظلم عنه سبحانه وتعالى فتكررت لهذا أداة النفى فى موضعين مختلفين .

وترتب على انقلاب الميم « باء » أن وجدنا بين أدوات النفى أداتين مركبتين للنفى أيضاً هما « بل » ، « بلى » . وقد أغنانا بعض النحاة عن القول إن « بلى » تطور « لبل » فقد روى هذا عنهم وهو مذكور فى المطولات من كتب النحو .

وهاتان الاداتان بل ، بلى تؤكدان معنى النفى فى الاستعمال وإن اختلفتا بعض الشىء عن اخواتهما من الادوات المركبة الاخرى . وتتحد هاتان الاداتان فى أن كلا منهما تستعمل جوابا لكلام قبلها فتنفيه . ففى حالة « بل » الامر هين واضح

فالمراد من قوله تعالى « أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق » تأكيد نفى الكلام الذى قبلها وهو أم يقولون به جنة . وهذا النوع من الاستعمال « لبل » هو الشائع الغالب .

أما « بلى » فرغم أنها دائما تبطل الكلام الذى قبلها ، تؤكد نفيه فلها استعمالان متميزان : الاول استعمالها بعد استفهام دخل على نفى مثل « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى » « فبلى » فى هذا الموضع تنفى نفياً مؤكداً الكلام الذى قبلها مع التوبيخ والتقريع . الثانى أن تكون رداً على النفى الذى فى الكلام قبلها فتبطله وتنفيه نفيا مؤكداً يترتب عليه بطبيعة الحال إثبات ضده وهذا هو الاستعمال الوحيد الذى يتكون فيه نفى النفى بالمعنى المنطقى أو الرياضى والذى ينتج الاثبات لان النفيين فى هذا الموضع وقعا فى كلامين لا فى كلام واحد فهو بمثابة قول اثنين من الناس أمام القاضى :

ـ ما أخذت ماله فيرد الآخر ويقول :

ـ هذا غير صحيح

فليس هذا الاستعمال بمانع لنا من القول إن « بلى » تفيد نفى النفى أو تأكيد النفى فى جملتها وهى تكون بذاتها جملة مستقلة لاتستعمل إلا إذا سبقها كلام . أما نتيجة الكلامين فهو شىء آخر غير مانحن بصدده من أن نفى النفى فى الكلام الواحد تأكيد للنفى من الناحية اللغوية .

وقد تتكرر الأداة فى الاسلوب العربى فتستعمل فى الجملة الواحدة عدة أدوات للنفى فلا تفيد إلا تأكيدا للنفى رغم هذا التكرار . ففى مثال « ومامن إله إلا الله » خمس أدوات للنفى .

ابراهيم أنيس
المدرس بجامعة فاروق

بعض المذاهب الأدبية

للاستاذ عبد الحميد حسن

يذهب الأدباء فى تصوير الحياة ومظاهرها مذاهب شتى ترجح فيها بعض الاتجاهات ، وتتغلب وجهات من النظر على أخرى ، فمنهم من يتجه إلى الحقائق وصورها الظاهرة ، ومنهم من يجنح إلى الخيال ويرى فيه التخلص من المادة والتحرر من قيودها . ومنهم من ينظر إلى ما تنطوى عليه الحقائق وما يكمن وراءها من معان وألوان من الايحاء .

ومن هذا نشأت مذاهب ثلاثة وهى : الواقعى ، والمثالى ، والخيالى . ولكى نتبين منشأ هذه المذاهب نتجه إلى حقيقة الأدب لنرى مدى ماهنالك من صلة بينه وبينها ، ولنعرف ماعسى أن تتضمن من اتجاهات أدبية :

ومن المعلوم أن الأدب هو صورة صادقة من الحياة ومما يجرى فى أعماق النفس ، فمعرفة هذه الحياة والبحث فى حدودها ، وفهم ما ينعكس من صورها على صفحات النفس . وتفسير مايكمن فى ثنايا مظاهرها من المعانى ، كل هذا مجال واسع لعقول الأدباء وميدان فسيح لأفكارهم .

وليس الادباء سواء فى اتجاههم ، فمنهم من يتجه فى إدراك الحياة إلى الحقائق الخارجية الواقعية ، ومنهم من يخرج عن دائرة الواقع المحسوس إلى الفسيح من ميادين الخيال ، ومنهم من يميل إلى جانب المثل العليا ، فلا يرى فى الحياة ظواهرها السطحية بل ينفذ إلى ما يكمن فيها مما لاتراه النظرة العابرة . وعلى ذلك نجد الاتجاهات التى أشرنا اليها .

(١) فالمذهب الواقعي أو الادب الواقعي يصور الحياة الطبيعية المألوفة ويتجه إلى الحقائق الخارجية الواقعية ، التي تستوقف الحواس ويمر بها الناس في حياتهم .

وأنصار هذا المذهب هم ممن يميلون إلى الصريح من الحقائق ، والخالص من مظاهر الكون ، والواضح من ألوان الحياة ، ويجولون في أفق الواقع فلا يهيمون في سماء الخيال ، ولا يخرجون عن نطاق ما يبدو من ظواهر الحقائق ، وهم يرون أن الأدب الخيالي بعيد عن مسايرة قوانين الحياة الواقعية ونظمها ، وينظرون إلى مافيه من مشوقات وطرائف نظرهم إلى ما يتعلل به الاطفال من لعب ومباهج وزخارف .

وهذا المذهب ليس ضيق الميدان كما قد يتبادر ، فان أصحابه لايحصرونه في الحياة الحاضرة كما نراها ، بل يتخذون من صفحات الماضي وحياة السابقين مجالا لادبهم ، وصورا يبرزونها لقرائهم ، وليس أدبهم كذلك خلوا من الجانب الراقي من الوجدان الذي تنسج عناصره من الواقع .

ولكن اسرافهم في الجرى وراء الحقائق ووقوفهم عند ظاهرها يبعدهم عن حقيقة لها مكانتها في الادب ، وهي أن قيمته ليست فيما فيه من الحقائق بل فيما تثيره من عواطف ، وما تتضمنه من القوانين العامة للحياة . فالحقائق أشبه بالسلع ليس لها في ذاتها قيمة ، وانما قيمتها في ارتباطها بحياتنا وفي صلتها بمطالبنا ورغباتنا . وإن الفنون لاترمي إلى عرض الحقائق بل الى عرض أثرها في نفس الفنان وصبغها بلون جديد من الوان الحياة الصادقة وكل هذا لانجد اليه السبيل إذا نحن لم نخرج عن نطاق الحقائق الواقعية الماثلة أمام حواسنا .

وإلى جانب هذا نرى أن الجرى وراء الواقع ينتهي بنا إلى حياة جامدة مقيدة بما يحيط بنا من مظاهر وبما يغمرنا من تقاليد العرف الذي يملك علينا حواسنا ، ويغلبنا على عقلنا وتفكيرنا ، ويحول بيننا وبين الحقائق البعيدة عن التمويه والتكلف ، ويصرفنا عما قد يكون في الحقائق الواقعية من انحراف أو شذوذ أو اضطراب . وانا لنرى ذلك في أنفسنا ، فان ما الفنا من تقاليد الحياة ، وما يحيط بنا من نظم

المجتمع ومواضعاته وعادات أهله يمتزج بنفوسنا ، ويتحكم فى تصرفاتنا وسلوكنا ، فلا نرى مانحن فيه مما يتجه اليه النقد وما ينحرف عن الصواب .

على أنا لانغض النظر عما فى هذا المذهب من مزايا ، ولعل أوضح مافيه من محاسن ، وأقوى ماله من أثر هو فى هذا الجانب الوقائى . فالأدب الواقعى خير علاج لهذا التورط والتدهور الذى قد تصل اليه الاتجاهات الادبية التى تتخذ مقياسها من مظاهر صناعية متكلفة لاتمت إلى الواقع بصلة ولا ترتبط بالحياة فى صميمها .

٢ – المذهب المثالى

وأصحاب هذا المذهب يتجهون إلى الحقائق ، لكن لافى شكلها الواقعى ولافيما يبدو من مظاهرها الخارجية ، بل ينفذون الى مايكمن فيها من المعانى وما يتغلغل فى طياتها من ألوان الايحاء ، ويبرزون كل ذلك فى صورة تسطع من خلالها معان كامنة لايراها إلا من كشف عن عقلهم الغطاء فرأوا مافى ثنايا الحقائق ، وما تنطق به من بديع المعانى .

وإنا نرى ذلك فيما حولنا من مظاهر ومناظر ، من تغريد الطيور ، ومتلاطم الامواج ، ويانع الثمر ، وناضر الازهار ، والسحب والكواكب وأنواع الطيور وغير ذلك . ففى كل هذا لايرى النظر السطحى إلا أصواتا وألوانا وأجساما ، ولكن المثالى يرى فيها آيات رائعة ، ويلمح فى الصامت من الحقائق بيانا قوى الدلالة وفى الثابت ألوانا من الاشعة المعنويه تخترق الفضاء ، وتسبح فى الجو فتملؤه بهجة وروعة .

وكذلك ترى المثاليين ينفذون إلى الفطرة الانسانية فيرونها على صورتها الواضحة ويتبينون ما فى تصرفات بنى الانسان وسلوكهم من تكلف أو جمود أو نزوع إلى المحاكاة وسهولة الانقياد للمألوف ، والاذعان للأمر الواقع الذى انطبع فى مظاهر الحياة ، يتبينون كل هذا فيرهفون أقلامهم لعلاجه وتخليص العقول من أغلاله ، ويرسمون للفكر الانسانى نهجه القويم

٣ ـ المذهب الخيالى

وأصحاب هذا المذهب يحاولون التخلص من قيود الحياة الخارجية ، ويطلقون لخيالهم العنان فيبرزون من المعانى شتى الألوان ، ويعمدون للمألوف فيغيرون من أوضاعه وأشكاله ، ويصوغونه صوغا جديدا ، ويخرجون منه مناظر طريفة ، ولا يقتصرون فى ابداعهم على الطبيعى من المناظر بل يجولون فى الميدان النفسى والاجتماعى فيجيئون بصور من الاخلاق والشخصيات فى مظاهر جديدة وهم فى كل هذا يسيرون فى حدود القوانين الحيوية والقواعد العامة للانسانية

ولهذا المذهب مكانة فى الادب ، لما للخيال من أثر فى الابداع وجمال التصوير وأن الكاتب الذى يتخذ من الخيال وسيلة لتحلية أدبه يستطيع أن يتنقل بالقارىء فى أودية من المعانى ، وألوان من طرائف الحياة ، ويسبح به فى عالم يرى كل مافيه جديداً ، ويحس بأن حياته قد نهجت نهجا جديدا ، وأن ما حوله قد اصطبغ بصبغة جديدة ، وظهر على غير ما كان يعهد ، فيرى البعيد قريبا ، والقليل كثيراً ، والصعب هينا ، والبغيض محببا ، أو يرى عكس كل هذا .

والكاتب الخيالى إذا كان رائده سامى الغايات ونبيل المقاصد ، استطاع أن يكون مرشداً إلى الجديد النافع ، وحافزاً على جليل الاعمال ، ويكون تصويره باعثا على النشاط النفسى ، وعونا على سعة الافق العقلى ، وموحيا بأنواع جديدة من نظم الحياة ومناحى التفكير . أما إذا اشتط وهام فى وديان الضلال ، وخرج على قوانين الحياة فان إنتاجه يكون ضعيف الاثر أو منحرف القصد ، وقد يوقظ عواطف هابطة فينحرف بالخلق عن سواء السبيل .

* * *

وإذا نظرنا إلى ما بين هذه المذاهب من صلة ، وجدنا أن المذهب الواقعى لا يلاقى المذهب الخيالى فى ميدان ، بل هما متقابلان ، فالواقعى يرتبط بالحقائق ، والخيالى لا يتجه اليها بل يخلق فى ميدان الابداع والابتكار . والواقعى والمثالى

بينهما صلة من بعض النواحى فكلاهما موضوعه الحقائق ولكن الواقعى يصورها كما هى فى الخارج وفى رأى الحس . أما المثالى فانه ينفذ إلى باطنها ومعانيها الكامنة .

* * *

ولنلق بعد هذا نظرة سريعة على نصيب الأدباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب ونصيب أدبنا العربى منها . أما الادباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب فانه يرجع إلى ميولهم واستعدادهم وما أحاط بهم مما يبعث على تنشيط الخيال او تقييده ، أو إلى تغلب الحياة المادية التى تجتذب التفكير وتصرف العقل عن التحليق فى ميادين الجديد المبتكر ، فمن الكتاب من طبع ادبه بطابع خيالى عميق ، ومنهم من تقتاده الحقائق الظاهرة فينسج منها أدبه ، ومنهم من ينشد المثل العليا ويجنح إلى ما وراء المادى المحسوس ، وينفذ إلى أعماق الحياة وما فيها من مظاهر طبيعية ونظم اجتماعية وعادات وطباع ، ومنهم من يأخذ من كل هذا بطرف فتتجلى فى أدبه الوان من الواقع والمثل الاعلى والخيال

ولسنا نريد بهذا أن نجرد أنواعا خاصة من الادب من الخيال ، فانه من الدعائم ذات الشأن فى حسن الابانة وجودة التصوير ، وله شأن فى جميع الفنون ، ولا أن نضع حواجز منيعة بين هذه المذاهب فنحظر أن يعاون بعضها بعضا ، ولا أن نقيد الادب بمذهب منها لايتعداه فى جميع أحواله .

* * *

أما نصيب الأدب العربى من هذه المذاهب ، فانا نجد منها ألوانا منثرة فى ثناياه ، ونجد من ضروب الخيال قدراً عظيما يتجلى فى أنواع الاستعارة والتشبيه ؛ وفيما سطره بعض الأدباء من قصص مثل رسالة الغفران للمعرى ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسى ، وفى المقامات . ونجد كذلك من حقائق الحياة وروائع الحكم ونواحى المثل العليا قدرا ليس بالقليل منبثا فى ثنايا المأثور من نظم ونثر فى عصور الأدب العربى المختلفة ولا سيما العصور

الخصبة الزاهية التى تجلى فيها العقل العربى الخالص ، او الذى اصطبغ بما كان للعناصر التى دخلت فى حوزة العرب من علم وفن ومدنية . وانا نترك ذلك للباحث بتعرفه من قراءة فنون الادب العـــربى فى مختلف المراحل من قديم وجديد .

عبد الحميد عسه
الأستاذ بدار العلوم

الجمال الفنى فى كتاب البؤساء

لحضرة الاستاذ عبد الوهاب عزام الخطيب

اثارة من أسى ممض ، وحسرة لاذعة لاتزال تطيف بالأدب العربى كلما ذكر حافظ وشوقى فينكأ الجرح ويدمى أسفا على جبارين من جبابرة الأدب ، أفضى بهما ولع المئون إلى التراب منذ أعوام مضت ، ولئن كان التراب مصير الأولين والآخرين إن الخلود لمصير العظماء والنابغين ، ومن أجدر بالخلود من حافظ وشوقى؟.

وقد زعم بعض الناس أن حافظا مات محدوداً كما عاش محدوداً . فلم يشيعه إلى رمسه إلا نفر قليل من أصدقائه المخلصين ، ولم تقم له حفلة تأبين تليق بمنزلته الأدبية كشاعر بلغ الذروة فى فنه وانهت إلى حسه إمرة الاجتماعيات فى عصره وزعم هذا الناس أيضا أن شوقى مات مجدوداً كما عاش مجدوداً ، فشيع إلى مقره تشييعاً رسمياً ، وأقيمت له حفلة رسمية فى دار الاوبرا الملكية أبنه فيها كثير من شعراء الشرق وأدبائه فاجتمع له بذلك سعادة الحياة بالصيت البعيد والترف العظيم وسعادة الموت بالذكر الحسن والثناء الجميل.

ثم جفت المآقى من الدمع . وتطاير الصدى من السمع . فاذا الشاعران العظيمان فى الموت مستويان . وإذا بالباقى على الزمن قصيدة قالها شوقى فى صديقه وحبيبه حافظ ، خلدتهما معا . هذا راث وذاك مرثى . وانتزعت من السموأل تلك الصفة التى استبد بها أربعة عشر قرنا كاملا ، وهى صفة الوفاء التى أتى عليها شوقى بالشطر الأول من مطلع قصيدته

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يا منصف الموتى من الأحياء

ولكنه أبى إلا أن يذكر صديقه بالوفاء للحق وللاستاذ الامام فقال:

الحق نادى فاستجبت ولم تزل ... للحق تحفل عند كل نداء

وأتيت صحراء الامام تذوب من ... طول الحنين لساكن الصحراء

ولقد كان حافظ وفيا للامام محمد عبده حق الوفاء يتجلى ذلك فى كثير من شعره، ورسائله اليه وفى قصيدته التى رثاه بها حيث يقول:

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسادى وغم عدائى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى ... وفيه الأيادى موضع اللبنات

عليك سلام الله مالك موحشا ... عبوس المغانى مقفر العرصات

وكان من وفاء حافظ للاستاذ الامام أن تقدم اليه بكتاب البؤساء بعد أن عربه بهذه الكلمة: «إنك موئل البائس ومرجع اليائس وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألم بعيش البائسين، وحياة اليائسين، وضعه صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب البؤساء وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة الرحمة فوق العدل

وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب وتصرفت فيه بعض التصرف واختصرت بعض الاختصار ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ورأيك الأعلى لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث

أولها: التيمن باسمك، والتشرف بالانتماء اليك. وثانيها: ارتياح النفس، وسرور اليراع، برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام، ومقدار كد الأفهام. وثالثها: امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق.

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين».

وكان الاستاذ الامام رضى الله عنه أول من عنى بدراسة كتابى «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة» للامام عبد القاهر الجرجانى. وكان — كما يقول حافظ — الرجل الذى يعرف مهر الكلام، ومقدار كد الأفهام. وكان حافظ

من تلاميذه الذين تعلموا منه الحكمة وفصل الخطاب ، وتأدبوا بأدبه ونهجوا منهجه . ولا شك أن الامام قد أرشد حافظا إلى هذين الكتابين ، وحثه على تفهم مافيهما من أدب غال ونقد صحيح . كما أرشده إلى غيرهما من كتب الأدب ، وكان حافظ فهما ، ذكى الفؤاد ، قوى الذاكرة ، وكان مشغوفا بالجزالة يفضلها على السهولة ، لأنه كان جنديا من ناحية ، وكان عظيم الجرم ، جهير الصوت من ناحية اخرى ، وكان يتأثر من ناحية ثالثة اثر استاذه فى الشعر ، محمود سامى البارودى باشا . كل أولئك ، كان له أثر عظيم فى نفس حافظ ، حينما عرب كتاب البؤساء ؛ فان الناظر فى هذا الكتاب يلاحظ كثرة الكلمات اللغوية فى غير نبو ، والمتأمل فيه يلاحظ كثرة الاستعارات فى غير سقم . والمحقق له يلاحظ كثرة الاقتباسات فى غير استيحاش .

١) أما الكلمات اللغوية فمنثورة فى ثنايا سطوره ، انى قرأت وجدت : ولعل السر فى ذلك راجع إلى حدب حافظ على اللغة العربية ، ذلك الحدب الذى ظهر جليا فى مقدمة « كلمة فى التعريب » حيث يقول :

« ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها ، تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد انتهكته الأوهام .

وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلا يثنى ذلك الغربى بدعوته ، حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم أن هذا خذلان منك ، فأدركنا برحمتك ، وهيىء لنا من أمرنا رشداً

والذى ظهر بأجلى معانيه فى قصيدته التائية على لسان حال اللغة العربية ، حيث يقول :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فانى أخاف عليكم أن تحين وفاتى

وإحياء اللغة إنما يكون باحياء مفرداتها وتراكيبها ، ولذلك لم يأل حافظ جهداً فى الأخذ بناصرها من هاتين الناحيتين . انظر مثلا إلى قوله:

« فقال له صاحبه وهو يحاوره : لقد بالغت فى محاسنتك كى لاأجيبك بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع ، فأبيت إلا الاصرار ، فاغرب عنى أيها الرجل ، ولا تلحف فى السؤال ، فأنا أعلم بك منك » فانك ترى أول ماترى هذا الاقتباس البديع من القرآن الكريم فى صدر الجملة « قال له صاحبه وهو يحاوره » وترى هذا الاسلوب العربى الصميم فى قوله « كرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاغة المنع » وترى إلى جانب هذا وذاك ثلاث كلمات قلما يستعملها غير الخاصة من كتاب هذا العصر ، وهى « لاأجيبك » و « اغرب عنى » و « لاتلحف »

وانظر إلى قوله « أين عين فانتين ، ترى ذلك الطمر الذى تضل الابر سبيلها فى شقوقه . وينتهى العد دون خزوقه . تضحى فيه وتخصر . وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب إلى كنف الدار والفناء . وتنطلق والصبح والليل خيطان إلى حمل الماء » .

ألست ترى عجبا فى قوله « تضل الأبر سبيلها فى شقوقه » وفى قوله « وتنطلق والصبح والليل خيطان » ثم ألست ترى عمر بن أبى ربيعة واقفا بجانب هذا الكلام ينشدك قوله

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ثم ألست تلمح خلال هذا الكلام قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر » وما بال كلمة « الطمر » هنا تمثل معنى البؤس والفاقة أتم تمثيل . وما بال السجع هنا حلوا رقيقا وما بال الطباق بين كلمتى

« تضحى ، وتخصر » وكلمتى « تنطوى » و« وتنشر » سهلا سائغا . وانظر إلى قوله « وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فقامت حتى اظهر النهار أو كاد » أما أنا فأرى أن حافظا قد فاق أبا الطيب حيث جعل الحمى تتمشى فى العظام وأبو الطيب جعلها « تبيت » فى قوله .

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

وذلك أن المشى حركة ، والألم المتحرك أشد من الألم الساكن ، ولعل حافظا لمح على البعد بجانب قول أبى الطيب قول أبى نواس

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فأخذ منهما معا وتم له ماأراد . على أن المتنبى ما كان يستطيع أن يقول غير ذلك . ثم انظر نظرة ثانية إلى هذه الجملة وانظر إلى قوله تعالى « فأسر بأهلك بقطع من الليل » فأنك معجب بهذا الاقتباس أيضا .

وأنا وأنت — إلا إذا كنت قد قرأت « أساس البلاغة » لانعرف إلا أصبح وأضحى وأمسى بمعنى دخل فى وقت الصباح وفى وقت المساء . أما أفجر الرجل إذا أدركه الفجر « وأظهر النهار » إذا كان وقت الظهيرة فهذا مالم يقع عليه نظرنا إلا فى كتاب البؤساء .

وكان حافظ يعرف كيف يضع الألفاظ فى مواضعها وكيف يستطيع ان يخلب الألباب بفطنته وذكائه وحسن تصرفه انظر مثلا إلى قوله

« وقد كان يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال

فانتقلت حمرة وجنتيها إلى عينيها . وهاجر سواد لحظها إلى حظها ، وامتد اصفرار شعرها إلى لونها . ودب سقم جفنها إلى صدرها . وسرى نحول خصرها الى جسمها والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذلك الهزال . »

واسأل نفسك . لم جعل خبر كان الأولى كونا عاما وجعل خبر الثانية كونا

خاصا ؟ وما السر فى التعبير بهذه الأفعال السبعة المتوالية التى تدل كلها على الانتقال والتحول ؟

ثم ماهذا الجمال الشائع فى هذا الكلام

أما أنا فأقول ان جمال الوجوه شيء تراه العيون وتدركه الأبصار من غير حاجة الى اعمال فكر بخلاف سحر العيون فانه لا يدرك إلا بتأمل وأنعام نظر ولذلك جاء الكون الخاص هنا (كامنا فى محاجرها) بدعا من القول لتوضيحه المعنى المراد ولأفادته المبالغة فى الاستتار والاستقرار

وقد عبر حافظ بالفعل « انتقل » لقرب العينين من الوجنتين . وبالفعل «هاجر» لما بين اللحظ والحظ من بعد معنوى لأن الأول حسى والآخر غير حسى .

ولما كان الشعر يوصف بالطول والامتداد قال حافظ « وامتد اصفرار شعرها إلى لونها » ثم لما كانت المسافة بين الحفن والصدر بعيدة وطريقها مستتره ملتوية من الأعصاب والاوردة المختلفة ولأن السقم لاينتقل مرة واحدة بل ينتقل متمهلا فى بطء وتسلل كخيوط النمل ، عبر حافظ بالفعل « دب » الذى يدل على هذا المعنى أتم دلالة فقال « ودب سقم جفنها إلى صدرها » ثم إنى أدع باقى الأفعال للقارىء الكريم ليعمل فيها فكره ورويته

وهنا دقائق يحسن بى أن أشير اليها فى اختصار انظر الى كلمتى « كاد » و« وأوشك » والى كلمتى « يمسح » و« مسحة » وإلى حرفى الجر فى قوله (ما كان على وجهها) و(بما كان كامنا فى محاجرها) وإلى أسماء الأشارة فى قوله (من مسحة ذلك الجمال) و(من ذلك السحر الحلال) و(ذلك الهيف وذاك الهزال) وإلى ذلك السجع الحلو الرقيق ، وإلى تلك الاستعارات المشرقة ، انظر إلى هذا كله يأخذك العجب وتدرك سر جمال الكلام .

٣) لقد وقع لحافظ فى كتاب البؤساء من الاستعارات الصحيحة ، والتشبيهات البارعة ، والتعبيرات اللطيفة ، مالم يقع لأحد فى كتاب قبله أو بعده . وأنى مقف على آثار ما أقول ببعض المثل .

ا) فمن ذلك قوله على لسان صاحب الدار التى طرقها جان فالجان بعد أن شاع

خبره فى مدينة دينى .

ولقد راعنى منك مايروع المرء من قاتله وكأنى اسمع صوتا يقطر منه الدم)

أذكر أنى قرأت الجملة الأخيرة فى كتاب الكامل للمبرد على لسان أعرابية طلب زوجها فى ثأر ، ومع ذلك فأنى أرى كأنها ماخلقت إلا لتكون فى موضعها من هذا الكلام

وقوله تعقيبا على كلمة (سيدى) وموقعها من نفس جان فالجان ، حينما سمعها من عابد مدينة دينى (ولايزال المصاب فى شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام ، حتى إذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل) وقوله فى سراج العابد (أرى سراجا مريض الفتيله ضئيل النور) وقوله يصف الشتاء « فأذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ، ينذرها بيوم قصير وجو مطير . وضباب مقيم ، وأفق مظلم ، ونهار يعثر صباحه بمسائه وليل يجهل أوله آخره ، وشمس رمداء وسماء مكفهرة الارجاء ، انظر إلى الكلمات (يعثر) و(يجهل) و(رمداء) ماأحلى مواقعها هنا وقوله فى مادلين وهو مسافر ليلا (وغاب فى أحشاء ايل قد كسر على الأرض جناحيه) هذه استعارات يقف القلم أمامها فى حيرة من جلالها وجمالها

ب) ومن التشبيهات البارعة قوله

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه ، وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم ، فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط وقوله إنما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس ، لايلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل) وقوله (وسرى اضطراب باطنه إلى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحجر الى المشى فترك يمشى وحده ، فهو لايكاد يتماسك)

وقوله (وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد ، أصلع الرأس جميعه حتى أن الناظر إلى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه

ج) وأما المقتبسات التى أتيح لحافظ أن يضعها فى تضاعيف البؤساء فكثيرة

بعضها من أشعار العرب وبعضها من القرآن الكريم وكلها تدل على سلامة ذوق ولطف مأخذ وغزارة مشرب وحسن وضع وجمال تنسيق واليك بعض المثل :

١) فهو ما مر به طير إلا وفزع ولا نبحه كلب إلا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، وإذا أغفى سلت عليه سيوفها ، الأحلام ، وإذا تيقظ راشت اليه سهامها الأوهام

لم يكد القلم يفرغ من إيراد المثل على حلاوة السجع حتى وقع هنا فيما هو أشهى وأحلى

وأنا ما ضربت هذا المثل إلا لأبين لك إلى جانبه قول أشجع السلمى فى مدح الرشيد .

وعلى عدوك يابن عم محمد ✲ رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا ✲ سلت عليه سيوفك الأحلام

(٢ وأصابت منه تلك اللفظة (سيدى) مواقع الماء من ذى الغلة الصادى وللقطامى :

يقتلننا بحديث ليس يعلمه ✲ من يتقين ولا مكنونه بادى
فهن ينبذن من قول يصبن به ✲ مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

٣) وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد ولبشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ✲ خرجت مع البازى على سواد

٥) فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطة للأشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا ولأبى العلاء .

جهول بالمناسك ليس يدرى ✲ أغياً كان يفعل أم رشادا

٥) وذهب ماذلين إلى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان ولأبى العلاء .

فكأنى ما قلت والبدر طفل ✲ وشباب الظلماء فى عنفوان

٦) ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذا لم تحصن فرجها وغادرها وهى جفن سلاح . وللفرزدق .

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح * عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفى جوفه من دارم ذو حفيظة * لو أن المنايا أنسأته لياليا

٧) وتحمل بين ذراعيها طفلة ساجية الطرف عبلة الساق وضاءة الجبين لها من صدر أمها مهاد ومن ذراعها وساد . أخذ الكرى بمقاعد أجفانها فنامت نوما هنيئا وللبارودى :

أخذ الكرى بمقاعد الأجفان * وهفا السرى بأعنة الفرسان

٨) فخرجت ربة المنزل بالصمت عن لا ونعم وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول : ولبشار :

وإذا قلت لها جودى لنا * خرجت بالصمت عن لا ونعم

٩) وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها . ولأبى نواس :

معتقة صاغ المزاج لرأسها * أكاليل در ما لناظمها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك

١٠) ذلك هو الرجل « جافير » الذى مافتىء يتعقب مادلين ويسير على أثره مسير القضاء فى حجب الغيب

ولابن الرومى :

لك مكر يدب فى القوم أخفى * من دبيب الغناء فى الأعضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ * ـب إلى من يريده بالستواء

١١) اللهم إنك تعلم أننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس وصبرت حتى ملنى الصبر . وللبحترى :

واشترائى العراق خطة غبن * بعد بيعى الشام بيعة وكس

ولمصطفى صادق الرافعى :

طريدة بؤس مل من بؤسها الصبر وطالت على الغبراء أيامها الغبر
وأن كنت لا أدرى أيهما أسبق

١٢) فأصبحت لاتخشى نازلا ، وأمست لاترجو نائلا ، وباتت لاتبالى ما انتفعت بأن تبالى :

ولأبى الطيب

خصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى

١٣) فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول . وللبارودى :

فكأنما افترست بطائر حلمه مشمولة أوساغ سم الاسود

١٤) ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون . لتماسكت وأن زعزعنى الدهر وبالغت فى تطفيف قوتى الايام والليالى . وللبحترى :

وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ـر التماسا منه لتعسى ونكسى

١٥) وإنى لاشعر كأن قوة باطنه تسوقنى اليه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب وللنابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

١٦) فلو أن رائيا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم أو بالافلات من براثن حادث .

ولأبى نواس :

بعيدة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم

١٧) وإذا تأنقت الاقدار فى مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها ولأحد الشعراء

اليوم يومان مذ غبت عن بصرى نفسى فؤادك ما ذنبى فاعتذر
أمسى وأصبح لا ألقاك واحزنى لقد تانق فى مكروهى القدر

لم أقف على هذين البيتين إلا فى كتاب دلائل الاعجاز

١٨) فقال لى أخى أعطف بنا على هذا الطريق الاجوف وكان طريقا سماؤه فى لون الارضه . وللراجز :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كان لون أرضه سماؤه

وقد وقع عليه نظرى فى متن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى .

١٩) وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها وللبحترى :

يفتلى فيهم أرتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

٢٠) وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب (دان مسف فوق الارض هيدبه) ولعبيد بن الابرص :

دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

هذا هو الاقتباس الوحيد الذى وضع بين قوسين ونبه اليه الشاوح ولم يذكر اسم الشاعر .

ذلك مبلغ علمى مما اقتبسه حافظ من الشعر فأما ما اقتبسه من القرآن الكريم فكثير يستطيع القارىء أن يدركه من غير كبير عناء ولكنى سأورد بعض الأمثلة لذلك أيضا اتماما للبحث .

١) لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح شارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

٢) ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء

٣) اللهم ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى إلى والقرآن: « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم »

٤) فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين والقرآن (واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين)

٥) فليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولا : والقرآن «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»

٦) فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية والقى عليه قولا ثقيلا: والقرآن « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »

أما بعد : فقد قال ابن المقفع : « ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره ، فتكلم به فى موضعه ، وعلى وجهه ، فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء — ولا عليه ألا يزداد — فقد بلغ الغاية » .

ودخل غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين على رضى الله عنه أيام خلافته وغالب شيخ كبير ومعه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ . فقال له على رضى الله عنه: من الشيخ ؟

قال : أنا غالب بن صعصعة : قال : ذو الابل الكثيرة ؟ قال نعم . قال : ما فعلت إبلك ؟ قال : زعزعتها الحقوق وأذهبتها الحالات والنوائب . قال ذاك أمهر سبيلها من هذا الغلام معك ؟ قال . هذا ابنى . قال ما اسمه . قال . همام وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . فقال . أقرئه القرآن فهو خير له ، فكان الفرزدق بعد يروى هذا الحديث ويقول : مازالت كلمته فى نفسى حتى قيد نفسه بقيد وآلى ألا يفكه حتى يحفظ القرآن فما فكه حتى حفظه

ياعجبا . ماكان أشبه حافظا بالفرزدق وماكان أشبه الامام محمد عبده بأمير المؤمنين على بن أبى طالب ولعل خير كلام يختم به هذا البحث تلك الرسالة التى بعث بها الاستاذ الامام إلى حافظ يشكر له تعريبه كتاب البؤساء وهى آية من البلاغة يندر وجود نظير لها فى البيان العربى. قال الامام :

(رسالة الاستاذ الامام)

لو كان بى أن اشكرك لظن بالغت فى تحسينه : أو احمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه ، لكان لقلمى مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجرى فى الشكر الى الغاية كما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا وبسطته على القريب والبعيد من ابناء لغتنا ، زففت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها ، ولاتزال تنبه منهم خامدا ، وتهز فيهم جامدا ، بل لاتنفك تحيى من قلوبهم ماأماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ماأعوزت فيه الأسوة . حكمة افاضها الله على رجل منهم ، فهدى الى التقاطها رجلا منا ، فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وحلاها للناظر وحلاها للطالب ، بعد ماأصلح من خلقها ، وزاق من معارفها ، حتى ظهرت محببة الى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، نهش الفهم ، وقبس للطف الذوق ، وتسابق الفكر الى مواطن العلم ، فلا بكاء يلحظها الوهم ، إلا وهى من النفس فى مكان الالهام .

حاول قوم من قبلك ان يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك ، فوقف العجز باعلابهم عند مبتدأ الطريق ، ووصل منهم فريق الى مايحب من مقصده ، ولكنه لم يعن ان يعيد الى اللغة العربية مافقدت من اساليبها ، ويرد إليها ما سلبه المعتدون عليها ، من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه

أما أنت . فقد وفيت من ذلك مالاغاية لمريد بعده ، ولامطمع لطالب ان يبلغ صده ، ولو كنت ممن يقول بالشامخ ، لذهبت إلى أن روح ابن المقنع كانت من طيبات الأرواح ، فظهرت بك اليوم فى صورة أبدع ، ومعنى أنفع

ولعلك قد شغلت بطريقتك فى التعريب . سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ، ويحملها الزمان إلى ابناء مايستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الابناء كما أجملت فى الصنع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية ألا يدخلها بعد من العجمة ، سوى ماهو فى الأسماء . أسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعانى والأجناس . ومثلى من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلى فكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى :

ولو أنى حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمى عن الشكر لك . وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء ؟

عبد الوهاب عنانى الخطيب
المدرس بالتربية النسوية بالمنيرة

ابن المعتز والقمر

اقتباس من كتاب عبد الله بن المعتز

تحت الطبع

لعبد العزيز سيد الأهل

عبد الله بن المعتز أشعر أبناء الخلفاء من بنى هاشم ومن أبرع أنشاء القرن الهجرى الثالث ، تفرغ للشعر يصنعه فهتف به ثلاثين عاما من عمر لم يعد خمسة وأربعين ، وانحنى على الوصف والتشبيه انحناء رجل رخى البال موفور النعمة مخدوم يتفق وقته كله لهوا وتسلية وسبحا وراء التشبيه يطرده ويتصيده ، والتشبيه يخفض له رقابه ويملكه من عنانه حتى غلب عليه وصار جزءا من حياته الشعرية لا يتخلف ولا ينفصم عنها .

ومن أبرع تشبيهاته تلك التشبيهات التى تضرب فى إثر المرئى وتدور حوله تستقصى وصفه وترسم منظره فى كل وضع ومن كل ناحية ، فى إجادة وظرف وكلام سبط يجرى فى جنس ماهو بسبيله من الرشاقة والوضوح ولطف المزاج ورقة أولاد الملوك .

ولعل القمر كان من أوفر مرئيات ابن المعتز حظا بشعره ، وأظفرها بترقبه وترصده ، ولم يلحق به فيه شاعر ممن تعرضوا لوصف السماء كافة ، ونخص

منهم أعلام المتأخرين كابن الرومى وكشاجم والميكالى والعسكرى والوأواء وابن طباطبا .

وليس القمر أوحد ما تعرض له ابن المعتز من كواكب السماء ونجومها فاستقصى اتجاهاته وأشكاله فشبه به وشبه له ، فقد وصف كل ما يعرف من نجوم وشهب وكواكب ، وفيها له تشبيهات منقطعة النظير وإنما عرضنا هنا لقمره على سبيل المثال .

وكم رأى ابن المعتز طلوع الشهر وإهلال الهلال ! ولكن هلال العيد أبعث الأهلة للفرح والانشراح لما يحمل من بشرى الإفطار وتحليل الممنوع وإباحة المكروه وهو إن بعث الفرح فى قلوب الناس فبعثه للفرح فى قلوب الشعراء أكثر ، وفى قلب ابن المعتز الأمير أكثر من قلوب الشعراء ، فلا غرو أن هزه هلال شوال فهلل وتهافت على ذكر الشراب والدعوة له والزورق والعنبر فقال :

أهلا بفطر قد أنار هلاله الآن فاغد على الشراب وبكر
وانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلتـــه حمولة من عنبر

أما فى غير شوال فهو يبدو صغيرا ضئيلا ، ويبدو فى عين ابن المعتز أصغر وأضأل حين يكشف بصغره وضآلته ما يريد ابن المعتز أن يسبل الظلام عليه أستارا حالكة فلا تنفذ اليه أعين الرقباء ، فيقول واصفا ضخامة إيذائه مع هوان شأنه .

وجاءنى فى قميص الليل مســـتترا معجل الخطوة من خوف وهى حذر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر

حتى إذا كان القمر ابن ليلتين صوره فى قوله :

كأنه ابن ليلتيه من سهده الدائم القديم

فخ بوسط السماء ملقى ينتظر الصيد للنجوم

ثم يدرج القمر نحو الكمال ويخلع على الدجا فى الآفاق خلعا من البياض وسرابيل من البهاء فيخيل للشاعر أن النجوم تحف به احتفاء وهو يتقدم فى مواكبهن ملكا عزيزا فيقول :

قمر بدا لك مشرقا فى ليله حسر الدجا أذياله عن ذيله
خلعت على الآفاق من أنواره خلع البياض فأومضت فى ليله
وإذا تقدم فى النجوم حسبته ملكا تشير مواكب من حوله

فاذا كان القمر فى التمام وغض ضوء جبينه من أضواء النجوم وتراءى وجهه ضاحكا فى دجلة الراقصة المصفقة حول سميرية ابن المعتز وهى تشق به صفحة الماء قال :

البدر يضحك وسط دجلة وجهه والماء يرقص حولنا ويصفق
فكأنه فيها طراز مذهب وكأنها فيه رداء أزرق

أو قال فى ليلة من ليالى السرى :

ومصباحنا قمر مشرق كترس اللجين يشق الدجا

وما أجمل أن يتقابل قرص البدر وقرص الشمس فى صبح نصف الشهر ، ذلك أبيض ناصع يغرب وهذا أحمر ملتهب يشرق ، وقد بات ابن المعتز طول ليلة النصف سهران فلما طلع عليه هذا المنظر والما يفارقه بعد خمار الصبوح غنى يقول :

ياليلة ما كان أط يبها سوى قصر المدى
أحييتها وأمتها وطويتها طى الردا
حتى رأيت الشمس تد لو البدر فى أفق السما
فكأنها وكأنه قد جان من خمر وما

ثم يروقه هذا المنظر فينحنى عليه يصوره مرة أخرى فى صورة نهار ذى يدين قد أمسك بالشمس فى يمينه ورفعها اعتزازا بها لغلوها ومال بالقمر فى شماله يرميه لرخصه وقلة منته فيقول :

نظرت فى يوم لذة عجبا وافى به للسعود مقدار
يقابل الشمس فيه بدر دجا يأخذ من نورها ويمتار
كصيرفى يروح منتقدا فى كفه درهم ودينار

ويعود على القمر يشبهه بالدرهم قائلا :

والبدر فى أفق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

فإذا طلع القمر على السفح الآخر للشهر القمرى وسله النقصان وانحدر إلى الزوال لم ير فيه ابن المعتز من الجمال ما كان يراه فى طفولته وصباه واكتمال شبابه فيعدله من التشبيهات ما يشبهه وهو كهل وهرم وموف على الفناء ، ولقد أرق الأمير ذات مرة حتى ظهر القمر فى أخريات الليل فقال :

ماذقت طعم النوم لو تدرى كأنما جنبى على جمر
فى قمر مسترق نصفه كأنه مجرفة العطر

حتى إذا قرب القمر من ليالى المحاق ولم يطلع إلا والليل موشك على الزوال ارتجز قائلا :

إذا الهلال فارقه ليلته بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الأسود شابت لحيته

ولقد يشبه ابن المعتز بالهلال فيجيد الصنعة أيضا كقوله يمدح :

مر بنا تشرق الطريق به فى قد غصن وحسن تمثال

فخلته والعيون تأخذه من كل فج هلال شوال

وقوله يصف الخمر وقد أسيلت من دنها مائلة فى قوس طرفه فى فم الدن وطرفه الآخر فى فم الكأس :

تخرج من دنها وقد حدبت مثل هلال بدا بتقويس

وربما كانت الصنعة فى هذه التشبيهات وغيرها والرياضة عليها رياضة مقدرة فى رسم الصورة والمظهر أكثر من أن تنطق فيها الروح وتتكلم ولكنه اتجاه شعرى على كل حال وصنعة انفرد بها ابن المعتز فلم يلحق به لاحق

ومن العجيب أن شعراءنا المعاصرين قد هجوا القمر لما يعين نسور الجو على العدوان فى حربنا الضروس هذه ، وكانوا يعدون ذلك ابتكارا جديدا لم يسبقوا به ولم يفطن له أحد قبلهم ، ولكن ابن المعتز سبقهم الى هذه النقمة عليه حين كان يثير عليه بعوض بغداد التى شغل عنها بسر من رأى فقال :

وبات كاسر أعداؤه إذا رام قوتا من النوم شذ

تعززه شررات البعو ض فى قمر مثل ظهر الجرذ

ثم يشتد حنقه على القمر فيهجوه شاكيا متململا ويتمنى لو نال منه تشبيهه ولكنه لا يستطيع أن ينال منه كما تحذر اليد لمس جلد الابرص اتقاء المرض وخيفة العدوى ، وما أجدر شكوى ابن المعتز من القمر أن تكون شكوانا منه فنقول كما يقول :

ياسارق الأنوار من شمس الضحا يامشكلى طيب الكرى ومنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلح بهقا كلون الابرص

وهكذا دانت صنعة تشبيه المرئى لابن المعتز كما وأتاه الطبع ، فكان جديرا بادعاء زعامته اذ قال «إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه فض الله فمى» وقد أقره محترفو الصنعة من بعده على هذه الزعامة فقالوا « اذا رأيت كاف التشبيه فى شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان »

عبد العزيز سيد الاهل

شوقي وقوميته

للأستاذ محمد احمد الحوفي

— ١ —

أولع شوقي بالدستور ، ودعا إليه مراراً في صراحة وحرارة ، وجلى ميزاته ، ووجه الشعب وجهة صالحة في اختيار نوابه ، وأوحى إلى النواب واجبهم في خدمة الوطن(١)

ولهذا كان يخزع من اختلاف الأحزاب ويطمئن إلى ائتلافها وتناصرها .

لأنه مصري أحب مصر وفخر بها ، ولأنه قومي ، مصر قبلته ، وخيرها وجهته :

وإني لغريذ هـذى البطاح تغـذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة آمالهـا وكل معلقـة قالهـا
أدار النسيب إلى حبها وولى المـدائح إجلالها

فلم يكن شوقي حزبيا بالمعنى الضيق الذى يغمط الفضل ، ويجحد الكفاية ، ويمارى في كل نفع للوطن يجتنيه حزب آخر ، بل كان قوميا يشيد بفضل المحسن من أى حزب ، ويأسى للمسيء من أى فريق ، ولذلك اتصل بهؤلاء وهؤلاء ، وراقه عمل هنا فأطراه . وأعجبه عمل هناك ففوه به ، ولم يمنعه ذلك من لوم من أثنى عليهم أمس إذا ما تنكبوا الطريق .

وليس أدل على ذلك من أن خلصاءه كانوا إلى شيع مختلفة ، ومراثيه بللت ثرى رجال من أحزاب متباينة ، ومنهم من فرق بينهم الصراع الحزبي ، وباعد بينهم الملك ، لكن قبلتهم في نظر شوقي واحدة .

---

(١) الرسالة العددان ٥٩٨ و ٥٩٩

— ٢ —

فى قصيدة (الأزهر) سنة ١٩٢٤ يعرج على الشقاق وما جنى ، فيذكر فى مرارة وحسرة أن بعض المصريين شردوا عن الحق ، وتخلفوا عن الجمع ، وكان الاحزم والاكيس أن تقف مصر فى صف واحد كالبنيان المرصوف ، كما وقفت فى الثورة الرائعة من قبل ، وعندئذ ليغلبن الحق الاعزل الباطل المدجج . يقول :

وتفيئوا الدستور تحت ظلاله ... كنفا أمش من الرياض وأنضرا
لاتجعلوه هوى وخلفا بينكم ... ومجر دنيا للنفوس ومتجرا
اليوم صرحت الأمور فأظهرت ... ما كان من خدع السياسة مضمرا
حظ رجونا الخير من إقباله ... عاث المفرق فيه حتى أدبرا

— ٣ —

وفى مشروع ٢٨ فبراير يلوم المتفاخرون بما بذلوا من جهود وجهاد فى القضية الوطنية ، لأن التفاخر أثرة واعتداد بالنفس وكبرياء ، ومن ورياء ، وشبه هؤلاء بجنود فى جيش مقاتل لمحوا بوارق النصر فألقوا سلاحهم ، واستبقوا إلى الغنائم والمنازعة عليها ، فلا جرم أن يغلبوا ويقتلوا ، كما حدث للمسلمين فى غزوة أحد إذ خالفوا النبى ﷺ ، وتركوا أماكنهم وجروا إلى الغنائم ، ففشلوا فهزموا . وعلى المجاهدين أن يدعوا تقدير جهادهم للتاريخ .

ضموا الجهود وخلوها منكرة ... لاتملئوا الشدق من تعريفها عجبا
أفى الوغى ورحى الهيجاء دائرة ... تحصون من مات أو تحصون سلبا
خلو الاكاليل للتاريخ إن له ... يدا تؤلفها درا ومخشلبا (١)
أمر الرجال إليه لا الى نفر ... من بينكم سبق الانباء والكتبا
أملى على الهوى والحقد فاندفعت ... يداه ترتجلان الماء واللهبا

---

[١] زجاج .

إذا رأيت الهوى فى أمة حكما فاحكم هنالك أن العقل قد ذهبا

— ٤ —

ويظهر أن الفرقة فى سنة ١٩٢٤ كانت ذات وخز أليم لشوقى ، فقد عرض لها مرة ثانية فى قصيدته (شهيد الحق) بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة الزعيم المغفور له مصطفى كامل باشا ، وتناول ما أصاب مصر من انقسام ، جر اليها الضعف والضر ، فهى قلقة لما تستقر ، ونصفها الجنوبى (سودانها) انقطع منها أو كاد ، ونار الفرقة التى تؤرثها الاحزاب تحرق مصر ، والمتنازعون الذين يتراشقون ويترامون انما يصمون أنفسهم ، ويرمون وطنهم ، والحسرة تملأ نفس الشاعر على أنهم تعادوا بعد صفاء ، واختلفوا بعد ولاء ، وقد يستحيل التوفيق بينهم بعدما استشرى بينهم الداء كالسرطان حار فى شفائه الاطباء

إلام الخلف بينكمو إلاما وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت على حال ، ولا السودان داما
شببتم بينكم فى القطر نارا على محتله كانت سلاما
إذا ماراضها بالعقل قوم أجد لها هوى قوم ضراما
ترامينم فقال الناس قوم إلى الخذلان امرهم ترامى
وكانت مصر اول من اصبتم فلم تحص الجراح ولا الكلاما
اذا كان الرماة رماة سوء احلوا غير مرماها السهاما
أبعد العروة الوثقى وجند كانياب الغضنفر لن يراما
تباغيتم كانسكم خلايا من السرطان لاتجد الضماما

— ٥ —

ولبس ادل على فرحته باتحاد كلمتها ، وتوحيد وجهتها من قصيدته (المؤتمر)

التى قالها فى المؤتمر السياسى الذى اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على إنقاذ الدستور برياسة الزعيم المغفور له سعد باشا سنة ١٩٢٦ فى دار المغفور له محمود باشا سليمان ففى هذه القصيدة حيا الحرية وشهداءها فى أبيات روائع ثم ازدف البشرى إلى مصر بائتلاف أحزابها ، وانها لبشرى تهتز لها مصر كلها حتى نباتها ، ويتجدد لها نشاطها وتجمل حياتها ، كانها الربيع ، وكيف لاتهتز مصر وقد تصافى زعماؤها وتصالحت أقلام كتابها ، ومحا الوداد والصفاء ضغائن الصدور ، وتناقل المجتمعون من السياسيين عبارات العتبى ، وتنقلوا بها حول الموائد ، وترقرق فى نظراتهم البشر ، فأينما جلت بعينك لاترى إلا عناقا أو مصافحة ، وإنما طرب شوقى لهذا الاتحاد لأنه جمع رجالات الامة لتنتفع بخصائصهم وميزاتهم المتنوعة ، ففيهم الجرىء الصريح ، وفيهم السياسى الماكر ، وربما ينجح الدهاء حيث تخفق الصراحة ، ولقد اتحدوا ليعيدوا الدستور المعطل ، والامم فى هذا العصر تشيد ملكها على دعائم من الدستور وقوى الرأى العام والديمقراطية لا على الاستبداد والبطش والسيف والرمح ، ثم سما شوقى وحلق حيث قرر أن جلال التيجان وجمالها ليس بنوادر الماس ، وكرائم الدر وروائع الجوهر ، وإنما جلاله بجواهر الدستور ، فإنها أروع وأبقى وأجمل ، ولاعجب فى تقريره هذا عن الدستور فله فيه آيات بينات .

بشرى الى الوادى تهز نباته ... هز الربيع مناكب الأدواح
تسرى ملمحة الحجول على الربا ... وتسيل غرتها بكل بطاح
التامت الاحزاب بعد تصدع ... وتصافت الاقلام بعد تلاح
سحبت على الاحقاد أذيال الهوى ... ومشى على الضغن الوداد الماحى
ترمى بطرفك فى المجامع لاترى ... غير التعانق واشتباك الراح
لله الف للبلاد صدورها ... من كل داهية وكل صراح
وزراء مملكة دعائم دولة ... أعلام مؤتمر أسود صباح

يبنون بالدستور حائط ملكهم لا بالصفاح ولا على الارماح
وجواهر التيجان مالم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح

ولا يفوتنا ونحن نقطف من هذه القصيدة أن نقف عند وصفه الرائع البارع

شمس النهار تعلمى الميزان من سعد الديار وشيخها النضاح
ميلى انظريه فى الندى كأنه عثمان عن أم الكتاب يلاحى
كم تاج تضحية وتاج كرامة للعين حول جبينه اللماح
والشيب منبثق كنور الحق من فوديه أو فجر الهدى المنصاح
لبى أذان الصلح أول قائم والصلح خمس قواعد الإصلاح

ثم عند هذين البيتين اللذين يصور فيهما آثار الائتلاف :

شتى فضائل فى الرجال كأنها شتى سلاح من قنا وصفاح
فاذا هى اجتمعت لملك جبهة كانت حصون مناعة ونطاح

ثم ينصح الشباب ، ويبين لهم جدوى الاتحاد وجريرة التفرقة . فمصر المتحدة صخرة ترتطم بها الحادثات فترتد وتتكسر . ومصر المتفرقة مرضوضة مصدوعة القوى تغلب وتقهر ، يجترىء عليها الذين لا أمر لهم ولا نهى ، وان صيحتها وهى متحدة لزئير يرعب ، وصوتها وهى على فرقة بعض نباح لا يرهب ولا يغضب.

أنتم بنو اليوم العصيب نشأتمو فى قصف أنواء وعصف رياح
ورأيتمو الوطن المؤلف صخرة فى الحادثات وسيلها المجتاح
وشهدتموصدع الصفوف وماجنى من أمر مفتات ونهى وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجمعا فاذا تفرق كان بعض نباح

— ٦ —

وفى فبراير سنة ١٩٢٦ احتفل بذكرى مصطفى كامل ، وألقيت فى الحفل قصيدة لشوقى ناجى فيها مصطفى فزف اليه البشرى بأن الأمة موحدة الرأى بعد الفرقة ،

ملمومة الشمل بعد الصدع ، وحد الألم بينها فاستفاقت من الحذر وختل العدو المغتصب ، وجهتها الاستقلال وحده يحرسه الجميع كما تحرس النحل خليتها ، وذكر المؤتمر ثانية وأن العقلاء تتحد أهدافهم وأساليبهم ، وأن مصر بعد الاتحاد ليث يحمى عرينه .

قم تر القوم كتلة ... مثل ملمومة الصخر
جددوا ألفة الهوى ... والإخاء الذى شطر
ليس للخلف بينهم ... أو لأسبابه أثر
ألفتهم روائح ... غاديات من الغير
وصحوا من منوم ... وأفاقوا من الخدر
أقبلوا نحو حقهم ... مالهم غيره وطر
جعلوه خلية ... شرعوا دونها الابر
وتواصوا بخطة ... وتداعوا لمؤتمر
وقصارى أولى النهى ... يتلاقون فى الفكر
آذنونا بموقف ... من جلال ومن خطر
تسمع الليث عنده ... دون آجامه زأر
قل لهم فى نديهم ... مصر بالباب تنتظر

احمد محمد الحوفى
المدرس بالسعيدية الثانوية

الجاه المستعار

الفصل الثالث

حجرة نوم متواضعة بها سرير قديم وأثاث بال . خميس يغط فى نومه ويهذى وهو نائم .

خميس ـ فى النوم ـ من هو هذا الأخرق السخيف ؟ هل هو إلا خادم نظيف ؟
ثم بعد فترة جروا الفتى حروه من أقدامه وطهروا الديوان من آثامه
لقد تخلى عنه من يحميه خيبة الله على أبيه
ثم بعد فترة خميس لا سامحك الرحمن أبعد شيبى هكذا أهان
أخذت ما استحق من حسابى ثم طردت خارج الأبواب

(عصام يدخل فيوقظه)

عصام خميس أفق قد أطلت الرقاد
خميس نعم
عصام قم أما حان وقت القيام ؟
خميس ـ وهو يصحو ـ سأصحو سريعاً
عصام أما زلت تهذى وتكثر عند الرقاد الكلام ؟
كأن بفيك جهازاً يذيع وهذا الجهاز بغير صمام
خميس ـ فى توجع أحقا تقول ؟ أتسخر منى ؟ رويداً أطلت على الملام
ومن لى عند الكرى بالهدوء كأن الهدوء على حرام
إذا أنا رمت الهجوع أغار على من الفكر جيش لهام
وأغرقنى مضجعى فى هموم تهد القوى وتخز العظام
وقامت تحاربنى الذكريات بسن القناة وحد الحسام

وما الفكر والهم والذكريات لعمرك إلا جنود الظلام
أحاول صيد الكرى بالشباك فينفر منى نفار الحمام
فإن صدته بشباك الجفون رمتنى الرؤى بالخطوب الجسام
فطورا أنا فى أعالى الجبال وطورا أنا تحت طى الرغام
تنبه بعد الرقاد ضميرى فحرم عينى طيب المنام
واعمل إبرته فى فؤادى ووخز الضمير كوخز السهام
فما غمض جفنى الا غرار ولا نوم عينى إلا لمام

عصام : صاح كفكف من هذه العبرات حيلة العاجزين بث الشكاة
أنت عاهدتنى فلا تنقص العهـ ـد على الصبر يا أخى والثبات
لك مستقبل يناديك حلو باسم الثغر ساحر النبرات
فادفن الماضى البغيض بجب غائر والتفت لما هو آت
أزف الوقت ياصديقى وحانت ساعة الدرس هات كتبك هات
قد دنا الامتحان فالجود كل م الجود فى أن نضن بالاوقات

خميس : آه ياصاح زدت فى أشجانى وأثرت الكمين من أحزانى
قد دنا الامتحان حقا ولكن ليس لى قط بالرسوم يدان
أو لم تدر أنهم منذ حين هددونى بالطرد والحرمان ؟
استدنا فى أول العام نجما وعجزنا أن نستدين الثانى
لم يوفق أبى ولم يأل جهدا لهف نفسى على أبى كم يعانى؟
كم أراه معذبا فى سبيلى يحمل العبء وهو شيخ فان ؟
لهف نفسى على أبى كم يقاسى حرم الشيخ نفسه وكفانى
وطوى بطنه ووفر قوتى وتعرى من ثوبه وكسانى

عصام قل لى على ذكر أبيك أهولا زال كما عهدته معطلا ؟

خميس ما زال عاطلا من الأعمال يقول : عفت خدمة الرجال
كم موسر ذى ضيعة قد عرضا على أبى ضيعته فما ارتضى

عصام وما الذى نوى أبوك ياترى ؟

خميس لقد نوى المسكين أن يستأجرا
مزرعة فى بعض أنحاء القرى يعمل فيها باسمه محررا

عصام أرجو له أن يبلغ المرادا ويرزق التوفيق والسدادا
ما دمت تنوى يا أخى الاقامة فلأنصرف

خميس تصحبك السلامة

ثم لنفسه بعد انصراف عصام

هموم تؤرق جفن الليالى وتعيا بها راسيات الجبال
ولكنها ما ألانت قناتى ولا ضاق صدرى بها واحتمالى
لقد صقلت معدنى الحادثات ومافضل سيف بغير صقال ؟
تولى زمان الغرور . ألا لا رعى الله تلك السنين الخوالى
كأنى أنشئت خلقا جديدا جديد السمات جديد الخلال
سلكت طريق الهوان وكنت أظن الطريق طريق المعالى
ضللت السعادة ثم اهتديت إلى وكرها بعد طول الضلال
فلن أسأل الدهر نيل مرادى ولكن سآخذه بالنضال
ولن ألبس المجد ما لم تحك يمينى سرباله وشمالى
ومن يطلب المجد عفوا كمن يحاول فى البر صيد اللآلى
إذا قيل هذا محال أجبت أنا لست أعرف معنى المحال
جهلت لعمرى معنى الإباء وماجهلته ذوات الحجال

فلا يبخ وصل الفوانى ذليل فهن يرمن كرام الرجال
ولسن يردن مهورا غلت ولكن يردن النفوس الفوالى

« يستعرض صورة الفتاة »

يعاودنى من سعاد خيال فيا لشقائى بهذا الخيال
ترى نبذتنى الفتاة لأجل هوانى أم أسرفت فى الدلال ؟
لقد كنت صبا بحياء أبيها وما كان لى مأرب فى الوصال
فصرت أقدسها لاشىء بها غير محض النهى والجمال
لقد علمتنى الليالى كثيرا وما علم المرء مثل الليالى

جمعة ـ يدخل ـ أبشر خميس بكل يسر بعدما أضنى أباك السعى وانتعل الدما
مال كثير

خميس ـ فى غبطة ـ لاعدمتك لى أبا شهما أبر ولا عدمتك لى حمى
من أين جئت به ؟

جمعة بربك لا تسل ماذا يصيرك أنت ألا تعلما؟
من أشرف الأبواب جئت به ولا والله لم أسأل كريما درهما
إنى رأيتك يابنى موفقا وأنست فيك نجابة وتقدما
فاسلك طريقك يابنى فربما تمت على يدك السعادة ربما
وأنا الكفيل بكل ماتبغى ولو أنى اتخذت إلى الكواكب سلما

خميس ـ يقبل يده ـ نفسى فداؤك هات كفك هاتها أخلق بكفك يا أبى أن تلثما
من أين هذا المال؟ ثق بى ياأبى إن كان أمر المال سرا مبهما

جمعة أنا لست أخفى عنك سرا يافتى لكن أخاف عليك أن تتألما
بالأمس بعت مصاغ أمك

خميس ـ فى حسرة ـ بعته ؟ يا للفظاعة كم جنيت عليكما

جمعة لم تجن إنما يابنى وإنما نحيت طوقا حول جيدى محكما
حطمت عن قدمى أبيك وثاقه ولكم سألت الله أن يتحطما

أبنى قد عفت القصور وعيشها ولو أنها اتصلت بأسباب السما
ما عدت أقبل من كبير نعمة حاشاى أرضى غير ربى منعما
ويح ابن آدم يشتريك بماله إن كان يوليك الجميل . وقلما
إن القذى ليصيب عينى كلما رأت ابن آدم فى أخيه تحكما
خل القصور لأهلها إنى أرى فى جوها شبح الهوان مجسما
لا بارك الرحمن قصرا شامخا عشنا به مثل القطيع مسوما
الطفل ذو أمر هنا لك نافذ والبنت تحكم فيه حكما مبرما
ونساؤه يأمرن قبل رجاله فنطيع عبدانا . ونسمع خدما
ظهرى انحنى من طول ماقوسته عند الدخول أو الخروج مسلما
ويحى أأجهل ما الحياة وكنهها منذ الصبا حتى أشيب وأهرما؟

خميس طمأنت قلبى لاعدمتك يا أبى إنى حسبتك حانقا متبرما

جمعة فيم التبرم ؟ إنها حرية ردت إلى شيخ وهى وتهدما
أحسست فى رئتى برد نسيمها لله ما أحلاه حين تنسما
جو طليق طهرت أنفاسه جسما «بمكروب» الهوان تسمما
دعنى بهذا الكوخ حرا مطلقا أشكو الطوى فيه واحتمل الظما
دعنى بهذا الكوخ أمضغ حنظلا دعنى بهذا الكوخ أشرب علقما

خميس هذا شعورى لاعدمتك يا أبى قد كنت عما فى الضمير مترجما

جمعة . يناوله النقود

هذى رسومك يا بنى فأدها أقسمت ما سوفت إلا مرغما

هنا يدخل صاحب المنزل فى هيئة رجل خشن من أولاد البلد

صاحب المنزل ـ بعد دق الباب

يأهل هذا المنزل المعمور هل تسكنون هنا بغير أجور؟

جمعة يابن الكرام ألا تمن بمهلة حتى يمن الله بالتيسير

صاحب المنزل لو كان شهر واحد أمهلتكم لكن بذمتكم أجور شهور

خميس صبرا أبى حتى يزاول والدى أعماله لم يبق غير يسير
صاحب المنزل حتام أصبر؟ إن صبرى قد وهى لا عذر بعد اليوم فى التأخير
جمعة عذرا بربك إن طلبنا مهلة
صاحب المنزل كلا لعمرى لست بالمعذور
خميس أف لتلك الدار
صاحب المنزل أف مالها ؟ دارى «بتحت الربع» زين الدور
من كان مثلك فى جلالة شأنه لم يأو غير حدائق وقصور
أين الأثاث؟ لقد نظرت فما رأت عيناى غير سريرك المكسور
سكان هذا البيت كل أثاثه يا للرجال لمنزل مهجور

خميس — يناوله نقودا — خذ وانصرف

صاحب البيت — وهو منصرف :

شكرا فإن عدتم نعد بالحجز والانذار والتشهير
عجبى على شيخ مسن يدعى فقراً شديدا وهو غير فقير

ثم يدق الباب صبى البقال

الصبى يأهل هذا البيت . بيت خال ما فيه من أحد يجيب سؤالى
جمعة من أنت من ؟
الصبى — فى تهكم :
أنا لست أدرى من أنا أنسيتنى ؟ إنى فتى البقال
جمعة ماذا تريد ؟
الصبى لقد أتيت مسامرا أين الحساب ؟ أريده فى الحال
جمعة بالله أمهلنا قليلا ياقتى
الصبى ما بعد هذا اليوم من إمهال
حتام أغشى كل يوم بيتكم وأظل فيه معطلا أعمالى ؟
إن قبضت عليكمو لا تختفوا أو تدعوا فقراً ورقة حال

خميس سنسد دينك عن قريب جملة

الصبى ــ فى تعوج : لا بل تقسطـــه على أجيال

أقسمت لست ببارح من ها هنا حتى تسد الدين بالمثقـــال

لا تحسبوا الزيتون ينبت عندنا والجبن بل ثمن البضاعة غال

خميس خذ وانصرف

الصبى ــ وهو منصرف :

فيم المطال عدمتكم وجيوبكم تكتظ بالأموال ؟

ثم يدق القصاب الباب

القصاب يأهل هذا البيت

جمعة من بالباب ؟

القصاب صب يريد زيارة الأحـــباب

هـل تأكلون اللحم أكلا ثم لا تتكرمون بدفع أى حساب ؟

يأيها القوم استحوا ثم استحوا سدوا حساب اللحم للقصاب

جمعة إنا لفى فقر وحقك بالـــغ

القصاب من علم الفقراء أكل كبابى ؟

الفول يصلح وحده أمعاءكم والصوم شأن العابد الاواب

خميس ــ فى تأفف : لم يبق إلا أنت جئت تهيننا

القصاب ــ فى تحد : إلا أنا . هل تزدرون جنابى ؟

جيبى بأنواع الدراهم عامر إن كان شكلى مزرياً وثيابى

قوموا سلوا الاسواق عنى كلها أنا عنتر العبسى ليث الغاب

يخرج مديته ــ أو ما رأيتم مديتى مســـلولة كالسيف فى يد فارس وثاب؟

خميس خذ وانصرف

القصاب ــ وهو منصرف

أقسمت لو لم يدفعـــوا لطحنتهم طحن الدقيق بنابى

يسمع خارج المسرح نشيد « معهدى » يرتله الأولاد وهم ذاهبون إلى مدارسهم .

معهدى معهدى كم له من يد
كل يوم إلى بابه أغتدى
علمه وحده عدتى فى غدى
دمت يامعهدى صافى المورد
أنت نجم به للعلا أهتدى
أنا فى ظلك جندى أنا جندى أمين
رائدى عزمى ومجدى أبتنيه باليمين

تكرر مرتين

* * *

معهدى قبلتى حبه شيمتى
داره منزلى أرضه منبتى
معهدى أهله كلهم أسرتى
دمت يامعهدى صافى المورد
أنت نجم به للعلا أهتدى
دمت للعلم وداما لك راعيك الهمام
فيك حييت النظاما والمربين الكرام

تكرر مرتين

خميس — فى تحسر :

هتف الصغار مرتلين نشيدهم أحبب به فى مسمعى نشيدا
حيوا مدارسهم فكاد القلب من طرب يردد لحنهم ترديدا
ذهبوا اليها شاعرين بغبطة وبقيت وحدى فى الديار قعيدا

أبتاه برح بي الحنين لمعهدى أأظل عن أبوابه مطرودا ؟
أين النقود ؟ تبعثرت من راحتى لم يبق فيها الأشقياء نقودا

جمعة أبنى لا تجزع فرب ملمة ساءت وكان ختامها محمودا
فليحمل الدهر الخئون بخيله سأريه أن أباك أصلب عودا
بالله كن كأبيك فى إيمانه ثبت الجنان لدى الخطوب جليدا
ما دمت ذا عزم وتصميم فثق بالنصر . يوم النصر ليس بعيدا
الفارس الصنديد من لا يشتكى ليس المحارب فارسا صنديدا
خل القنوط إذا أردت سعادة هيهات أن يحيا القنوط سعيدا

خميس ومتى أعود إلى الدراسة ؟

جمعة فى غد سأبيع بعض متاعنا لتعودا

خميس — فى حسرة —

أتبيع يا أبت المتاع ؟

جمعة — فى حماسة . أبيعه فاذا تيسرت اشتريت جديدا
هبنا اشترينا بالمتاع رجاءنا أفلا ترى ثمن الرجاء زهيدا ؟
سأبيعه ولو اتخذت النجم من فوق غطاء وافترشت صعيدا

خميس — فى لوعة

ياللهوان والاتضاع الصبر ليس بمستطاع
يا لوعة عضت على كبدى بأنياب السباع
يا للأب الباكى الحز ين ويالأطفال جياع
أو ما كفى أن المصا غ مصاغ والدتى يباع
حتى أشاهد فى الغدا ة أبى يساوم فى المتاع

— ثم يغشى عليه —

جمعة ــ لخميس فى غشيته ــ

خميس خميس أفق يابنيا ولا تحمل الهم ما دمت حيا

خميس ــ فى غشبته

من هو هذا الاخرق السخيف ؟ هل هو إلا خادم نظيف ؟

جمعة ــ يرقيه ــ

باسم الاله الحافظ الجبار خالق كل مارد من نار
أسألك اللهم بالكتاب وحرمة الأربعة الاقطاب

ستار

الفصـــل الرابع

يقع بعد حوادث الفصل الثالث بنحو عشر سنين . على الحائط نتيجة تبين يوما من أيام سنة ١٩٤٠ . المنظر بهو فى مستشفى خصوصى . الممرضون وقوف يرتلون هذا النشيد .

الممرضون يكررون فى آخر النشيد
خلقنا جنود الحرب السقام نمد على الارض ظل الامان
نرف عليها رفيف الحمام ونسكب فيها معين الحنان

***

هلموا هلموا جنود النجاة نخفف فى الارض وقع المحن
نحقق فى الارض معنى الحياة ونرفع فيها لواء الوطن

***

وهل نحن الادواء الجريح وهل نحن الاشفاء السقيم
وهل نحن إلا مجن الصحيح ومال الفقير وأهل اليتيم

***

إذ أن شاك شققنا السبيل إليه وجئنا نلبى النداء
كأنا على رأس كل عليل ملائكة أرسلتها السماء

***

على الرحب ينزل راجى الشفاء هنا يستريح صريع الكروب
نداويه بالعطف قبل الدواء وخير الدواءين عطف القلوب

***

نسل من العلم أقوى سلاح على مفرق الداء حين يصيب
فنعم الجنود ونعم الكفاح ونعم الطبيب وعون الطبيب

عثمان (الممرض الأول) يأيها الممرضون انصرفوا

الممرضون هيا بنا هيا بنا

مساعد الممرض الأول لاتقفوا

عثمان (وهم خارجون) الان حلت ساعة الزيارة هيا احملوا أجهزة الحرارة
وجددوا فى الغرف الهواء ثم احملوا الفطور والدواء
لبوا على الفور دعاء المرضى جسوا لهم قبل الفطور النبضا
سيحضر الطبيب بعد ساعة فعجلوا

الممرضون سمعاً وألف طاعة

المساعد (بعد انصراف الممرضين) الحق أن عندنا « دكتورا »
لا يغفر السهو ولا التقصيرا

عثمان أبصر ذات مرة عليلا تركت شعر ذقنه طويلا
فقص من راتب هذا الشهير بقدر مافى دقنه من شعر (ضحك)

المساعد أما سمعت عنه إذ رآنى لم أحضر الدواء فى الأوان
وما تأخرت سوى ثوان فكاد أن يفقدنى اتزانى
بكفه وصوتها الرنان (ضحك)

عثمان لكن قلبه برغم شدته كالماء فى صفائه ورقته

المساعد وهو على المرضى من العباد أشفق من أم على أولاد

عثمان نعم وهذا كله ياصاح من غير شك سبب النجاح

المساعد كم عالج المريض فى المستشفى من دون أن يقبل منه كشفا

عثمان إن جاءه ذو علة داواه وكل ماجاد به كفاه

المساعد وإن يكن ذا فاقة أعفاه

عثمان وربما بماله واساه

المساعد أما ترى شهرة تلك الدار وكيف صارت قبلة الانظار
ومقصد العلية والكبار ؟

عثمان (فى تهكم) ونحن مثل الفلك الدوار

نعمل بالليل وبالنهار (ضحك)

المساعد متى عرفت حضرة الطبيب ؟

عثمان منذ زمان ليس بالقريب

من عشرة خلت وكان كاتبا وكنت فى الصحة معه حاجباً

لكنه كان فتى مشاغبا ثم استحال بعد ذاك طالبا

على علومه مكباً دائباً يكاد أن يساهر الكواكبا

حتى إذا ما أحرز الشهادة قام يدير هذه العيادة

فضاعفت شهرته إيراده

المساعد سعادة مابعدها سعادة

عثمان وثروة مافوقها زيادة

المساعد لكننى أشعر منذ حين بأنه مقطب الجبين

أشبه بالمكتئب الحزين

عثمان إنى من هذا على يقين

المساعد ماسر هذا المسلك العجيب

عثمان (فى شبه همس فتش عن المرأة ياحبيبى

المساعد (فى دهشة) أية مرأة ؟ أين

عثمان سعاد

المساعد من هى من ؟ لم أدر ما المراد

عثمان هل تعرف الباشا الذى غرفته فى الطابق العلوى ؟ تلك ابنته

المساعد لله در شعرها ما أبدعه !

عثمان إن لها ياصاح قصة معه

المساعد من أجل هذا كلما مرت به زاد خفوق قلبها وقلبه

عثمان كلاهما يرنو إلى أخيه بمقلة تفضح مايخفيه

المساعد إذا أتت أتبعها الانظارا وزاد لون وجهه احمرارا

عثمان وهى لذاك تكثر الزيارة سائمة بنفسها السيارة

المساعد وذو الحجا يفهم بالاشارة (ضحك)

خميس (يدخل) عثمان كيف الحال ؟

عثمان فى أمان الكل يامولاى فى اطمئنان

خميس هل طفت ياعثمان بالاسرة ؟

عثمان كل دقيقة أطوف مرة

خميس أما شكا من ألم عليل ؟

عثمان لم يشك منهم أحد

خميس جميل

هنا يدخل مريض يتلوى ممسكا بطنه بيديه

المريض أواه من بطنى ومن أمعائى إنى أحس النار فى أحشائى

جسمى طحالى كبدى أعصابى جميعها تشعر باضطراب

هل أنا حى بينكم أو ميت

خميس (وهو يفحصه) أنت بخير

المريض لا أنا انتهيت

خميس أين مكان الوجع ؟

المريض (مشيرا إلى جنبه الايمن) النار تحت أصبعى

النجدة النجدة «يادكتور» هنا هنا نار هنا تنور

لقد وهى عزمى وبح صوتى بالله أنقذنى ولو بالموت

خميس (مستمرا فى فحصه) نبض الفتى طبيعى وليس بالسريع

لكنه فى خطر من التهاب الأعور

عثمان إذن فلن يذوق طعم الراحة حتى يزور غرفة الجراحة

خميس (لعثمان والمساعد) تعاليا به معى وأحضرا لى مبضعى

يدخل الجميع ثم يظهر فكرى على المسرح من باب آخر وهو فى نوبة سعال حاد

فكرى أواه من طول النضال بينى وبينك ياسعال
حتام تقلق مضجعى ؟ لم نبق فى سوى خيال
ضيف على صدرى الضعيـ ـف حملته حمل الجبال
فتقطعت أوتار صو تى منه تقطيع الحبال
أصبحت أومىء بالمقا ـل فلا يطاوعنى المقال
حلقى به جرح بعيـ ـد الغور ليس له اندمال
عنق إذا رمت التنفـ ـس كان مشدود العقال
رئتى كأن أديمها كرة تمزقها النبال
وكأن صدرى قد من ورق عتيق النسج بال
وكأن أضلاعى تصفـ ـق باليمين وبالشمال
من مسعفى ؟ من منقذى من ذلك الداء العضال ؟

عثمان (يدخل) أهلا وسهلا بالرئيس فكرى من أى شىء تشتكى ؟

فكرى من صدرى

قم ناد مولاك خميسا ناده فالعطف كل العطف فى فؤاده
إنى أكلت سابقا من زاده والحر لا ينفك عن وداده
هيهات ينسى الحر فى أعياده من شاطروه الحزن فى حداده

خميس (يدخل) مرحبا

فكرى أهلا وسهلا

خميس مرحبا ياقديم الود ياخدن الصبا
أزائر أنت أم عليل ؟

فكرى لى قصة شرحها يطول

لقد برانى السعال حتى بدا على جسمى النحول
هل أنت بالبرء لى كفيل ؟

خميس لاتنزعج ربك الكفيل

خميس - نم ها هنا

ثم يفحصه ويقول : حرارة مرتفعة قلب ضعيف بنية مضعضعة

إن لديك ذبحة صدرية مصحوبة بنزلة شعبية

فكرى - منزعجا قل لى أحانت ساعة المنية ؟ إذن فدعنى أكتب الوصية

قد انتهت حياتى الشقية الله للزوجة والذرية

خميس لا تنزعج كن مطمئن البال

فكرى لقد قطعت يا أخى آمالى

خميس يقدم ورقه خذ جرعة من ذلك الدواء فى كل ليلة مع العشاء

وجرعة أخرى مع الفطور وصم عن اللحمة والطيور

فكرى طيور ؟ ومن لى بطيف الطيور ؟ وحقك ما ذقتها من شهور

خميس عشر سنين قد مضت يا فكرى ولم تزل تشكو اشتداد الفقر ؟

فكرى وسوف أشتكيه طول عمرى من يشتكيه ياخميس غيرى ؟

خميس أفلم تنل شيئا من الدرجات ؟

فكرى ما نلت غير ابن وتسع بنات

خميس ماذا تقول يا أخى لا تمزح لست هنا ممثلا فى مسرح

فكرى بالله دعنى يا خميس وما بى قد مزق الديوان برد شبابى

أو ما رأيت الشيب يعلو مفرقى ؟ ورأيت رأسى أبيض الجلباب ؟

لا بارك الله الوظيفة إنها هدت قواى وحطمت أعصابى

غطت على عينى فكادت لا ترى وجه الثرى إلا باصطرلاب

لقد اشترتنى كالرقيق فما وفى ثمن الشراء بمطعمى وشرابى

خدعت ثيابى الناظرين وإننى لم أنقد البزاز أجر ثيابى

لى كل شهر وقفة مشهودة إن حل شهر حل يوم حسابى

وتنازعتنى زوجتى وصغارها واصطف جيش الدائنين ببابى

كم رمت نعى الشهر ساعة وضعه وذهاب شهرى مؤذن بذهابى

رحماك قوست المكاتب صعدتى فمشيت فى حطو الجواد الكابى

أقضى نهارى غارقا فى مكتب فاضت به الاوراق فيض عباب

أقضى النهار على الدفاتر عاكفا كالعابد الأواب فى المحراب
ولقلما ولى نهارى هادئا فسلمت من لفت أو استجواب
لله آمال هناك دفنتها ما كانت الآمال غير سراب

تأخذه نوبة سعال

خميس هون عليك ولا تجزع لك الله ذكرتنى ما صياقد كدت أنساه

فكرى دعنى أجاهر بالشكوى وأعلنها أواه مما أقاسى ثم أواه
أشكر إلهك واعرف حق نعمته طوبى لمن خصه بالسعد مولاه
ما كان عيدك إلا يوم فرقتنا فانعم به واحتفل دوما بذكراه

خميس وكيف حال خليل ؟ لم يزل مرحا !

فكرى لك البقاء فسهم الموت أراده

خميس يا للمصاب متى !

فكرى من مدة سلفت

أما قرأت ببعض الصحف منعاه ؟

خميس وكيف مات ؟

فكرى شهيدا إن واجبه جنى عليه فأمسى من ضحاياه
مضى يطهر دارا أهلها مرضوا بالسل فاغتالت المسكين عدواه

خميس هل كان أنجب ؟

فكرى لم ينجب سوى ولد أزرى به اليتم لامال ولا جاه

خميس ألا ينال معاشاً ؟

فكرى بل مكافأة درت كطيف خيال عند مسراه
تبخرت كالندى من كف حاضنه فبات كالطير مقصوصاً جناحاه

خميس ـ لنفسه : لا يعرف الفقر إلا من تذوقه أواه من جمره كم بت أصلاه

ـ ثم لفكرى : يا للزمالة أين الطفل أحضنه ؟ قل لى بربك قل لى أين مأواه ؟
عهد على أمام الله أقطعه أنى له والد ما عشت أرعاه

فكرى بصوت مرتفع :

لله در طبيب فاض نائله تعالج النفس قبل الجسم يمناه
الخير فى الناس ماغاضت منابعه من يفعل الخير عند الله يلقاه

ثم تعتريه نوبة سعال حادة

فكرى أواه من طول النضال بينى وبينك ياسعال
خميس إنى أراك متعبا ياصاح لاتتعرض قط للرياح
فلتبق فى عيادتى يافكرى كى تضمن الشفاء

فكرى ألف شكر

خميس لاتتكلم ياأخى كثيراً عثمان قم أعدد له سريرا
أو ابق أنت هاهنا حتى أعده أنا

يدخل خميس وفكرى ثم يخرج الباشا من باب المستشفى فى ثياب المرضى

الباشا الحمد ثم الحمد للرحمن ذى الفضل والمنة والاحسان
الحمد لله الذى عافانى ومن مخالب الردى نجانى

عثمان قد أكمل الباشا هنا أيامه دامت له الصحة والسلامة
أظنه قد سئم الاقامة

الباشا أقمت شهرا داخل العيادة فهل تريد فوقها زيادة ؟

ثم ينفحه بنقود ثم يناجى نفسه :

شهر تولى وقبل الشهر عامان لم ينطبق لى عند النوم جفنان
أشكو من الداء لاأدرى بموضعه كأنما هو سر طى جثمانى
فلاطبيب أزاح الستر عن مرضى ولا دواء به استشفيت أجدانى
لولا خميس أقال الله عثرته مابات جسمى إلا طى أكفانى

خميس (يخرج) استغفر الله لولا رحمة سبقت من عند رب خفى اللطف منان
قل لى فديتك ماذا تبتغى ثمناً ؟ وما صنيعك مقدور بأثمان

خميس ـ محتدا ويحى بربك ما تعنى ؟ أتنقدنى مالا ؟ لعمرى لقد أصغرت من شأنى

شلت يدى إن قبلت المال من رجل نشأت فى داره طفلا وربانى

الباشا متأثرا يا محكم الطعنة النجلاء حسبك قد زعزعت بالطعنة النجلاء بنيانى

ويحى طردت الفتى بالأمس مفتريا لكنه بجميل الصنع جازانى

ما كان أسوأنى فعلا وأكرمه قتلته بيدى قتلا وأحيانى

خميس استغفر الله كم أسلفت عارفة إنى جزيتك إحسانا بإحسان

إن كنت أقصيتنى يوماً فلا جرم فإنما هو طيشى عنك أقصانى

قد كان ذلك من حمقى ومن نزقى لم تجن أنت ولكنى أنا الجانى

لم تجن لا بل بعثت الروح فى جسدى مشبوبة فسرت فى جسمى الفانى

فإن يكن لك عندى فضل تربيتى فإننى لست أنسى فضلك الثانى

الباشا لله درك ما أسماك عاطفة شكرا جزيلا وهل يجزيك شكرانى؟

بعد فترة لم أعن بالأجر لا مالا ولا نشبا ولا فرائد من ذر وعقيان

ليست تكافىء أموالى وإن كثرت من بالسلامة بعد الداء كافانى

لكن عنيت سعادا أصطفيك لها

خميس فى دهشة رفقا بربك قد حركت أشجانى

تعنى سعاد ؟ أحق ما نطقت به ؟ أيقظة هذه أم حلم وسنان

من لى بقلب سعاد ؟ أهى تذكرنى؟ يا ليت شعرى أهى اليوم ترضانى

الباشا لا تحسب الأمر ياصهرى مفاجأة لا بل نتيجة تفكير وإمعان

فاتحتها إذ أتتنى أمس زائرة فأطرقت خجلا إطراق إذعان

إن الفتاة اذا ما أطرقت رضيت يارب معنى أبانت عنه عينان

حميس لله أمنية قد لان جامحها طلابها قبل هذا اليوم أعيانى

الباشا أنقذت روحى فاقبل ما يعادلها سعاد والروح فى الميزان سيان

يدخل الشيخ جمعة فى مرح مخاطبا نفسه

جمعة الحمد لله الذى أغنانى بالمال والصحة والإيمان

بعت بأغلى ثمن أقطانى لم تبق أقساط على أطيانى

فى «بنك» مصر صار لى ألفان ومثلها فى المصرف العثمانى

خميس أبى أبى قدم لى التهانى

الباشا هنئه ياجمعة بالقران

فإنه صهرى منذ الآن

جمعة فى حركات عصبية

أصبحت للباشا من الأصهار يا لصروف الفلك الدوار

لقد بلغت منتهى أوطارى غنى معى يا معشر الأطيار

ورتلى شكرى للأقدار وبلغى كواكب الأسحار

ما نلت من مجد ومن اكبار نسجت باليمين واليسار

ثوبا من السؤدو والفخار يبلى أديم الليل والنهار

لا كان عهد الذل والصغار من اكتسى بالذل فهو عار

سحقا لثوب الشرف المعار

عثمان للممرضين يا أيها الممرضون هيا إلى من أوكاركم إليا

إن الزفاف يومه تهيا فأنشدونا لحنه الشجيا

الممرضون ينشدون هذا النشيد

ابتسم يا صباح غردى يا طيور

كوكب السعد لاح فى سماء السرور

...

مرحبا مرحبا بالقران السعيد

حل فى يومه ألف عيد وعيد

أشرقت شمسه فى رواء جديد

كل شىء به هاتف النشيد

...

ابتسم يا صباح . . . . .

أيها العرس فى يومك البشر ساد
أنت كل المنى أنت كل المراد
اهتفوا عاليا من صميم الفؤاد
يا خميس ابتهج واهنئى ياسعاد

...

ابتسم يا صباح . . . . .

...

بالقران اسعدا أيها الكوكبان
وابلغا الأوج فى ظل هذا القران
انعما واسلما من صروف الزمان
عشتما دائما دائما فى أمان

...

ابتسم يا صباح . . . . .

...

ستار

لأجل تمثيل الرواية ينبغى الحصول على إذن من المؤلف

نفسيتان عاتبتان

بين البحترى والمتنبى

للاستاذ احمد احمد بدوى

يقول « بيفون Buffon » العالم الفرنسى فى حديثه عن الأسلوب : «ان أسلوب الشخص هو الشخص نفسه» . يريد بذلك أن أسلوب الكلام ، وطريقة عرض الفكرة ، هى الصورة التى نتبين فيها خلال الشخص النفسية ، ومنهجه فى الفهم والتفكير .

وهذا القول صادق الى حد كبير ؛ فان الكاتب والشاعر يتركان خصائصهما فى أسلوبهما ، ونستطيع أن نتبين فى هذا الأسلوب أعمق أغوار قلبيهما ، وأدق معالم نفسيتهما ، ومن هنا يعنى الناقدون عناية خاصة بدراسة الأسلوب ، فهو — فضلا عما فيه من عناصر الجمال الفنى ، الذى يبعث فى النفس اللذة والسرور — يعيننا على فهم حقائق نفسية كثيرة قد يغفلها التاريخ ، ولكننا نستشفها من خلال الاسلوب.

والآن أعرض قصيدتين : احداهما للبحترى ، والاخرى للمتنبى ، قيلتا فى غرض واحد هو العتاب ولكنا بالموازنة بين أسلوبيهما نلمس بينهما فرقا هو الفرق بين نفسيتى قائليهما .

حدثت بين البحترى وممدوحه الوزير الفتح بن خاقان نبوة أعرض عنه بسببها الفتح ، فأنشأ الشاعر قصيدة يستل بها ضغنه ، ويعاتبه ، وحدثت بين المتنبى وممدوحه سيف الدولة نبوة قال فيها المتنبى قصيدة يعاتب بها أمير حلب .

موقف الشاعرين من الممدوحين جد مختلف فالبحترى لا يعرف لنفسه الا مكانة المادح من الممدوح ، مكانة الشاعر الذى ينعم عليه الفتح ، ويحسن إليه ، فإذا أعرض عنه الوزير يوما رنقت الايام مشرب الشاعر وأظلمت الدنيا فى عينيه .

بينا البحترى لا يطمع فى أعلى من هذه المنزلة نرى المتنبى يضع نفسه ندا لسيف الدولة ، له كل ما يمتاز به الامير من الشجاعة وبعد الهمة والسمو والنبل ، وله فوق ذلك أدبه الذى نظر إليه الاعمى ، وسمع كلماته الاصم ، فهو يمدح سيف الدولة بالهيبة والشجاعة التى تدفعه إلى الالم اذا هرب عدوه ، من غير أن يهزمه فى معركة حربية ، فيقول له :

فوت العدو الذى يممته ظفر ... فى طيه أسف فى طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البهم
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ألا يواريهم أرض . ولا علم
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك فى آثاره الهمم
عليك هزمهم فى كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم

فلا يكتفى المتنبى بمدح سيف الدولة وينسى نفسه ، بل يمضى فى تعداد مزاياه التى لا تقل عن مزايا أميره ، فهو شاعر معجز ، لا كفء له فى بلاط الامير ، أما غيره فزعانف ليست بعرب ولا عجم :

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
بأى لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

ثم هو شجاع يخوض المعارك على جواد :

رجلاه فى الركض رجل، واليدان يد وفعله ماتريد الكف والقدم

وبسيف يمشى به بين الصفوف ضاربا يخوض أمواج الموت :

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت، وموج الموت يلتطم

ثم ينشد هذا البيت التى يجمع بين فضيلتى السيف والقلم ، وهو :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فليس إذا للأمير صفة إلا شاركه المتنبى فيها ، ويقول بعض الرواة إن أبا فراس كان حاضرا هذا المجلس الذى أنشدت فيه تلك القصيدة فسأل المتنبى : وماذا أبقيت إذا للأمير ، فلم يجبه الشاعر .

وطريقة الشاعرين فى الاعتذار مختلفة كذلك اختلافا واضحا ؛ فالبحترى يتبرأ من الذنب ينفيه عن نفسه ؛ ويدعى أن الوشاة والأعداء هم الذين أحدثوا هذا الجفاء أما هو فلم يجن ولم يجرم ؛ وأكبر ظنه اذا أن الفتح لا يأخذه بالمظنة ولا يستبيح حقه ولو أنه أجرم وأساء لقتل نفسه من الحسرة والندم فيقول :

ثناه العدا عنى فأصحب مسرعا وأوهمه الواشون حتى توهما

أعيذك أن أخشاك من غير حادث تبين ؛ أو جرم اليك تقدما

وأكبر ظنى أنك المرء لم تكن تحلل بالظن الذمام المحرما

ولم أعرف الذنب الذى سؤتنى له فأقتل نفسى حسرة وتندما

ولم يكتف البحترى بذلك ؛ بل لجأ إلى أسلوب آخر أكثر لينا من سابقه يعتذر به ؛ فقال للفتح :

ولو كان ماخبرته أو ظننته لما كان غروا أن ألوم وتكرما

وينتهى الاعتذار بأسلوب يلبس ثوب الاسترحام فيقول .

أقر بما لم أجنه متنصلا إليك ، على أنى إخالك ألوما

لى الذنب معروفا ، وإن كنت جاهلا به ، ولك العتبى على وأنعما

وليس بعد ذلك درجة أقل من هذه ينزل إليها الاعتذار والاستعطاف.

أما المتنبى فبجلال وكبرياء يهاجم أعداءه ، ويرميهم بالجهل والغفلة ويحذرهم وينذرهم ، ويعيذ سيف الدولة ان يستحسن منهم من كان ذا ورم :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم يقسو عليه حين يخاطبه قائلا:

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

والذى خفف من قسوة هذا الاسلوب أن الشاعر قال : وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ولم يقل : وما انتفاعك بناظرك .

ثم يعود فيشمخ بأنفه ، مدعياً أن من المحال أن يلحقه عيب أو يلم به نقصان مهما بحثوا وفتشوا .

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وإذاً فلا اعتذار لأنه لا ذنب

ولننظر بعدئذ موقف الشاعرين من غضب صاحبيهما أما البحترى فخائف حزين يبيت فيرى سخط الأمير ليلا مع الليل ، ينازعه اللحظ ، فيرده كليلا ، ويراجعه القول ، فيجمجم فيه ولا يبين ، يشفق أن تكون نتيجة هذا الغضب فراق الوزير وفراق العراق ، بل يشفق من أن تكون النتيجة أشد من هذا وأقسى ، فلا يستطيع العودة إلى وطنه الشام سالما ، فيستعطف صاحبه ، ويذكره بما قاله فيه من شعر حمله الركبان فى الشرق والغرب :

عذيرى من الأيام رنقن مشربى ولقينى نحسا من الطير أشأما
وأكسبنى سخط امرىء بت موهنا أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما
وأصيد ان نازعته اللحظ رده كليلا ، وإن راجعته القول جمجما
وقد كان سهلا واضحا فتوعرت رباه ، وطلقا ضاحكا فتجهما
رأيت العراق ناكرتى وأقسمت على صروف الدهر أن أتشأما
وكان رجائى أن أءوب مملكا فصار رجائى أن أءوب مسلما
وما مانع مما توهمت غير أن تذكر بعض الانس أو تتذمما
ألست الموالى فيك غر قصائد هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما

ثناء كأن الروض منه منورا ضحى ، وكأن الوشى فيه مسهما

أما المتنبي فيهدد بالفراق ، وينذر صاحبه بأنه هو الذى سيندم على هذا الفراق ؛ أما الشاعر فعازم على نوى بعيدة تضعف عنها الابل السريعة ، ولم يبق لدى سيف الدولة ، وقد أصبح بلا صديق يخلص له ، ويأنس اليه ، وما يناله من هبات الأمير وعطاياه مهما كثرت تصمه وتعيبه ، لأن الرضا بالاهانة ذل لايحتمله ، ولم يبق وهو يرى نفسه ذا المواهب العالية السامية مساويا من لاحظ له من هذه المواهب التى توجب له التفرد والامتياز ، وإذا خلت البلاد من الصديق ، وأصبح كسب المرء يصمه ويعيبه ، ولم تعد مواهبه كفيلة بأن ينال مكانته الخليقة به ، فأولى له أن يرحل ومعه عزة نفسه وكرامته :

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوضاءة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به وشرما يكسب الانسان مايصم
وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

نرى إذاً فى هذين الأسلوبين نفسيتين مختلفتين إحداهما وادعة هادئة تريد أن تعيش فى سكون وراحة تنعم بالمال فى ظلال الأمن يخيفها شبح الاعراض ، فتسعى لتتجنبه بكل ما أوتيت من لين ولباقة ، لا يثقل عليه الاستعطاف ولا يجد غضاضة فى الاسترحام . بينما النفسية الثانية ثائرة متعالية ، ترى نفسها أعظم ممن حولها ، ولا تبيع عزتها من أجل البقاء فى ظل عيش رغد وديع .

قد نرى عند البحترى ثورة وفورانا ، ولكنها ثورة تنتهى بالموادعة واللين ، فالثوره الوحيدة التى ثارها فى قصيدته هى قوله :

ولو أننى وقرت شعرى وقاره وأجللت مدحى فيك أن يتهضما
لأكبرت أن أومى اليك بإصبع تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذى يأتى به الدهر هينا على ، ولو كان الحمام المقدما

وتختتم بهذا البيت :

أعد نظرا فيما تسخطت هل ترى مقالا دنيا أو فعالا مذمما

فثورته تنتهى بطلبه إعادة النظر فى قضيته ليرى إن كان ثمة مايدعو إلى إدانته ، ولا تنتهى بالتحذير والوعيد الذى هو النتيجة الطبعية للثورة .

وقد نرى عند المتنبي إلى جانب الثورة هدوءا ووداعة ولكنه هدوء الشخص المعتز بنفسه ، ووداعة الخليل يعاتب خليله ، لا وداعة المولى يخاطب سيده ، فهو يقول :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم
مالى أكتم حبا قدبرى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم

بل يزداد رقة حتى يقول :

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
يامن يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

ولكنها رقة ليس فيها أثر للاستكانة ، وهى أشبه بهذه التى تكون بين المحب ومن يحب .

احمد احمد بدوى
مدرس بحلوان الثانوية للبنين

عيد الهجرة

أسعد الكون ياهلال المحرم ... أنت بشرى مدى الزمان تكرم
أسعد النيل بالضياء فهذى ... راقصات النجوم حولك تنظم
ردد العود لحنها فتهادى ... ساحر اللفظ بالبشائر مفعم
وتغنت لها الطيور بشدو ... داعب العود بالنشيد المنغم
وتثنت لها الزهور اختيالا ... تنفح الكون بالاريج فينعم .
وتبدى لها الصباح بورد ... غازل الحسن فى الرداء المنمنم
وتراءى لها المساء بشعر ... بين دنيا الأملاك بات ينغم
بعثته الى الملائك دار ... هى أسمى من الهزار وأعظم
ينصت الدهر عندها فتغنى ... فاذا الدهر راقص يترنم
فهنيئا لك النشيد تعالى ... من وفى الدار ياهلال المحرم

* * *

ان تغنت فذاك دين عليها ... لاتراها تلى الحقوق لتهضم
جئت بالبشر والبشائر تترى ... زاهرات على الجباه تبسم
لمحة النور من سناك أعادت ... أملا كان بالجهالة يرجم
لا تزال الخيرات منك توالى ... صرت فألا على الشهور تقدم
من تصدى له النبى بأنس ... فهو لليمن والبشائر مغنم

* * *

كم تراءت لك العصور حيارى ... سادها الجهل والخطوب تجهم
ليس الا الشقاء يسرح فيها ... عابس الوجه لاينال فيقصم

تابعته الأحداث من كل فج أى خطب يروع فليتقدم
مدمع هاطل وقلب كسير وشكاة لها الجبال تحطم
واذا جحفل الهداية يسرى مشرق النور والدياجر تهزم
ذاك ضوء الرسول يظهر للكون كشمس الضحى أغر مقسم

* * *

ساق للناس رحمة وصفاء وكتابا منه الرشاد تعلم
ماجت البيد بالعطور ونادت هل بدنيا الرياض مثلى بلسم
نفحات بها النفوس تسامى وأريج به الخلائق تسلم
جاءه الغفل بالاذاة وتاهوا فى ضلال من الحنادس أقتم
ضحكت منهم الغواية يوما ما لهذا النبى يعلو ويعظم
دونه الموت فليذقه بسيف تلك بغيا لنا وذلك أحكم
فتعالوا له المساء لنحيا سادة نأمر الزمان ونحكم
غير أن البشير قام ينادى بين حفل من الملائك أعظم
خاب جمع الطغاة ذاك المفدى ينثقل الخطو والاصاغر نوم
من رعاه الرحمن عاش كريما عبقريا من النوائب يعصم
ماست البيد بالاريج وكادت راسيات الجبال تحنو وتبسم
والهضاب الفساح تهمس حيرى مالدنيا القفار تشدو وتنغم
هاهو الليل يستحيل نهارا وظباء الفلاة نشوى تنسم
وسموم الهجير عادت نسيما خضل العطف بالشذى يتنسم
يالهٔ موكبا تقر به العين وبشرى بها الستين توسم
خير من ضاء فى البرية يسرى باسم الثغر والملائك حوم

* * *

هات ياقبلة الرسول نشيدا ساجعات الأطيار منه تعلم
ردد الشدو كابتسام الامانى ها هو النور فى رباك تسنم

رفرف اليمن فى حماك وعادت رحمات الاله فوقك تسجم
صرت شمس العلا ورمز المعالى والامانى على جبينك ترسم
من حياة الرسول خير وداد فهو المجد الرجاء المقدم

* * *

ما لدنيا الاسلام تخضع للقيد ودنيا الأعداء تجرى وتقدم
قبسوا النور من حمانا فسادوا يوم صرنا عن المنارة نحجم
عجب . أصبح الصغير أميرا وأمير الزمان كاد يحطم
ناصروا الدين فهو خير دواء ليس بعد الاسلام دين يكرم

محمود شافع
الطالب بدار العلوم

ابتسامة الزمان

طلعت على الوادى صباحا منورا ... وجئت لآى السحر فى الغيد مظهرا
وهبت به من طيب رياك نفحة ... فأضحى بها قلب الوجود معطرا
شذاها على قلبى سلام ورحمة ... وان أشعلت نارا تهيج تسعرا
بدوت كوجه الشمس فى رونق الضحى ... فهجت من الاشواق ما كان مضمرا
كأنك فى ثغر الزمان ابتسامة ... يفيض سناها عبقريا على الورى
منحتك ودى فاحفظيه تكرما ... وصونى فؤادا فى الهوى ماتغيرا
فما أضيع القلب الذى ظل هائما ... اذا ماسباه الحسن ثم تنكرا

أحمد أبو المجد عيسى
الطالب بدار العلوم

الفهـــــــــرس

الصفحة	الموضـــوع
٣	شخصية امرىء القيس للاستاذ على النجدى ناصف
٢٣	نفى النفى تأكيد للنفى للدكتور ابراهيم أنيس
٣٣	بعض المذاهب الأدبية للأستاذ عبد الحميد حسن
٣٩	الجمال الفنى فى كتاب البؤساء للاستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب
٥٣	ابن المعتز والقمر للاستاذ عبد العزيز سيد الأهل
٥٩	شوقى وقوميته للاستاذ محمد احمد الحوفى
٦٥	الجاه المستعار للاستاذ محمود غنيم
٨٦	نفسيتان عاتبتان للاستاذ احمد احمد بدوى
٩٢	عيد الهجرة للطالب محمود شافع
٩٥	ابتسامة الزمان للطالب احمد أبو المجد عيسى

العددان الثالث والرابع

« السنة الحادية عشرة »

(ذى الحجة: ربيع الاول سنة ١٣٦٤ — يناير : ابريل سنة ١٩٤٥)

صحيفة دار العلوم

تصدرها « جماعة دار العلوم »

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب جنابة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً

خارج القطر ..... ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

تخليد ذكرى الخديوى اسماعيل

احتفلت مصر بذكرى مرور خمسين عاما على وفاة المغفور له الخديوى اسماعيل باشا ، فقامت جميع المعاهد العلمية والهيئات المختلفة تنوه بما كان لهذا العاهل العظيم من مآثر فى شتى النواحى العلمية والسياسية والاجتماعية فى مصر ، وتتلو على الجيل الحاضر صفحات خالدة من التاريخ المصرى الحديث الذى كان الخديوى اسماعيل قطب دائرته وواسطة عقده

ولقد كان عهده مرحلة ذات أثر عظيم فى مصر ونهضتها الحديثة بما رفع من مقامها السياسى ، وما حفز من نشاطها الاجتماعى ، وما ثبت من دعائم قوميتها ، وماعنى به من نشر التعليم واشاعة الثقافة ، وما أنشأ من مؤسسات عظيمة الشأن فى حياة البلاد ، الى غير ذلك مما جعل مصر زعيمة الممالك الشرقية وحلقة الاتصال بين المدنيتين الشرقية والغربية .

وفوق ذلك كان عصر اسماعيل حافلا بشتى مباهج الحياة فكان ذلك حافزا للادب ومادة خصبة لموضوعاته وفنونه وبدأ الادباء يسايرون الحياة المصرية ويصورون مظاهرها ، وبذلك اتجه الادب الى ناحية لها شأنها وهى تعبيره عن الحياة ومافيها .

* * *

وقد رأت جماعة دار العلوم أن خير ماتشترك به فى ذكرى الخديوى اسماعيل أن تذيع بعض مآثره فى محاضرات يلقيها أعضاؤها فقام ثلاثة من فضلائهم باعداد بعض الموضوعات فى مختلف النواحى الادبية فى عصر اسماعيل . وآثرت الجماعة أن تلقى هذه المحاضرات بناديها فى موسم الامتحانات العامة حين تجتمع جمهرة المعلمين فى القاهرة

ويسر صحيفة دار العلوم أن تنشر هذه المحاضرات راجية أن يتابع الافذاذ من رجال دار العلوم بحوثهم فى الادب واتجاهاته ونصيب الحياة المصرية منه فى هذه الفترات من عصرنا الحديث .

اسماعيليات أبي النصر (١)

للأستاذ السباعي بيومي

تمهيد

من أبو النصر ؟ وما الاسماعيليات ؟

أبو النصر مصرى عربى قرشى حسينى نشأ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى حيث كان يقيم أهله وذووه بمدينة منفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، فحفظ القرآن وتعلم مبادىء العلوم ثم نزح منها إلى الأزهر الشريف بقاهرة العزيز يلقن الشريعة ويدرس العربية ، فبدت عليه مخايل الأدب والاستعداد لقرض الشعر ، ولكنه استمر فى الطريق المرسوم إذ ذاك للدراسة الأزهرية حتى صار من كبار العلماء الذين امتازوا فوق علميتهم الدينية والعربية بالمقدرة على انشاء النثر الجيد وقرض الشعر الأجود ، فزاد ذلك من مكانته وعظم من شأنه حتى ان المغفور له محمد على باشا الكبير والى مصر لما طلب اليه السلطان عبد المجيد أن يبعث الى القسطنطينية بعض العلماء مع الأمراء ليشاركوا عظمته فى الاحتفال باعذار أنجاله كان السيد على أبو النصر ثانى اثنين أرسلا من العلماء ولم يكن الأول إلا الشيخ التميمى الحنفى مفتى الديار المصرية إذ ذاك ولعل هذا كان بحكم وظيفته ، وكان ذلك سنة ١٢٦٢ هـ ، ومن هذا نبه شأن أبى النصر وتوثق اتصاله بالبيت العلوى باقى أيام محمد على ، وكان من المعجبين بأعماله المغتبطين باصلاحاته لأنه كان رحمه الله كما قال فيه أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية وهو يقدم لديوانه «محبا لنشر أنوار التربية فى الوطن وسكانه،

---

(١) محاضرة ألقيت في نادى دار العلوم يوم الاربعاء ٢٧ من يونيه سنة ١٩٤٥

مشوقا محرضا فى ذلك بكل ما كان فى امكانه ، وكان فى حب الوطن بأعلى مكان ، يحب أن يراه قبل موته مكرما مسموع الصوت ، ذا حرية معتدلة ، وقوانين عادلة ، ورعاية حقوق لجميع أهله شاملة ، ولم يكن محمد على إلا عاملا فى سبيل ذلك كله بهمة لاتعرف الكلل ، وعزم لاتعتريه سآمة ولا ملل ، ولهذا أصبح أبو النصر شديد التألم بادى الحسرة والتبرم حينما وقفت هذه الحركة الدائبة أيام عباس وسعيد ، وكان لايزال يقول « إلام ننحرف عن سواء الطريق ، وحتام فى سكرة الغفلة نهيم ولا نفيق ».

ولكن كان من فضل الله عليه وعلى مصر أن ذلك العهد لم يطل إذ تولاها عزيزها اسماعيل ، فسره وأرضاه أن نفخ فى تلك الحركة من جديد فأعاد فتح ما كان أغلق من مدارس أنشأها جده وأخذ ينشىء كثيرا غيرها فى كل فروع التعليم حتى غصت القرى بالكتاتيب ، وبلغت المدارس الابتدائية بالعواصم ٢٣ ووسعت الثانويتان وهما الخديوية بالقاهرة ورأس التين بالاسكندرية كل من يريد التجهز للتعليم العالى كما بلغت المدارس العالية ٤ والحربية ٨ والخصوصية ٥ والصناعية ٤ ، ثم فطن الى ضرورة تعليم البنت على كراهية الشعب لتعليمها فأوعز الى حرمه جشم أفت هانم أن تؤسس مدرسة السيوفية للبنات فأسستها واحتضنتها وكان يحضر معها الاحتفال بامتحاناتها حتى صار عدد تلميذاتها ٤٠٠ ، وقد هم ينهض بمصر من نواح أخرى ذات شأن ، فحول ديوان المعارف الى نظارة ، وأنشأ دار الكتب ودار الآثار العربية ، وعنى بمطبعة بولاق ، كما أنشأ المدرج العام للمحاضرات بدرب الجماميز ، ودار الاوبرا للتمثيل ، والجمعية الجغرافية ، وأكثر من البعثات وشجع الصحافة وقرب الأدباء فخلق بذلك كله دولة للأدب فى مصر تفيأ ظلالها المصريون والسوريون وتنقل على أفنان دوحتها الكتاب والشعراء ، فكان صاحبنا أبو النصر أكبر مشيد بهذا الفضل ، وأعبق معطر لأشعاره بفوح ذلك الذكر ، وما أحس اسماعيل منه ذلك حتى قربه اليه وأدناه ، وجعله على الرأس من أدباء وقته وشعراء عصره ، وباهى به وبمصر أدباء دار الخلافة وشعراءها حين استصحبه معه فى رحلته العظيمة إلى القسطنطينية سنة ١٢٨٩ ، فقد طلب اليه وقد وافق دخولهم الاستانة فى هذه الرحلة عيد جلوس السلطان عبد العزيز إنشاء قصيدة فى مدحه وتاريخ عيد جلوسه فأنشأ

رائيته الباسقة التى منها .

تبسمت الأزهار عن اؤلؤ القطر ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر
وخط يراع الغصن إذ مال ظله بشائر قد لاحت على صفحة النهر
وزفت بروض الابتهاج عرائس لها كلما ماست تثار من الزهر
وغنت على عود الأراك حمامة تجاوب إلفا شفه ألم الهجر
تجاذبه بالطوق طورا ، وتارة تطارحه شكوى الغرام فلا يدرى
وبالشمس طاف البدر ، فاستجلها ضحى
وان شئت لاتسأل عن الشمس والبدر

وواصل جواد الجد واسلك سبيله وصابر فان المرء يعرف بالصبر
وشد نطاق الحزم فى كل رحلة ونقل ركاب العزم فى البر والبحر
ولج كل فج وانتهز كل فرصة وعول على الاقدام فى السر والجهر
ولا تخش ارهاص الحوادث واتئد ودعها كما قالوا سماوية تجرى
وعرج على دار الخلافة كى ترى جمال محياها ومنظرها البدرى
وصف ما تعالى من بديع صفاتها وحدث بما تهواه عن دمية القصر
ودعنى من الدنيا سواها فاننى سلوت السوى لولا اشتياقى الى مصر
دخلت حماها يوم عيد جلوسها فقابلتها بالشكر منشرح الصدر
وسرحت فى تلك البدائع ناظرى فملت الى خلع العذار بلا سكر
ولاحت لأنس العيد أجمل زينة ترنح أعطاف المليحة فى الخدر
فبت على حال تسر أولى النهى أنزه أفكارى الى مطلع الفجر
وأصبحت لاأهوى سوى مدح ملكها وذكر مزاياها وجناتها الخضر
مليك اذا لاحت كتائب جنده ترد شياطين الغواية بالقهر
خليفة خير الخلق من باجتهاده غدت عصبة الاسلام مشتدة الأزر
أفاد العلا جاها وعزا مؤبدا وألبسها من مجده حلل الفخر
وأحيا لاحياء العلا كل دارس فأضحت قلاع الثغر باسمة الثغر
وجدد فى عهد قريب بواخرا بها قوة الاسلام محكمة الأسر

له الله كم أبدى وأبدع فكره مآثر تدعونا الى الحمد والشكر
وان قيل فى التاريخ فضل لسابق فعبد العزيز الآن أسبق للبر
فهنيه بالبشرى سرورا وبهجة بعيد جلوس سره أبدا يسرى
وهأنا فى البشرى أقول مؤرخا جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر

فهذا الشعر الذى اختص به أبو النصر اسماعيل العظيم فى كثير من المناسبات والذى سجل فيه أعماله الخالدة فى كثير من المشروعات ، هو الذى نعنيه بالاسماعيليات وهو الذى نقف اليوم لنتكلم عنه تنويها بذكر شاعر عظيم وتخليدا لاعمال مصلح كبير أحيا موات مصر ، وجعلها بعبقريته درة لامعة على جبين الدهر .

١ - أبو النصر ومنشآت اسماعيل

كان أبو النصر معجبا كل الاعجاب بالهمة الشماء التى كانت لإسماعيل فى نشر التعليم لأنه كان كما قال خيرى باشا عنه آنفا « يحب نشر أنوار التربية فى الوطن » ومن ثم كان كما قال عنه « يستحسن مدرسة الاقباط بمنفلوط ويقول « ان التربية ستسعدهم وتصعدهم وترقيهم من الهبوط » وقد حقق الزمن قوله ولعله لهذه الغيرة منه على العلم ابتنى مدرسته الجميلة بمنفلوط بجوار جامعه الجليل كما ابتنى عدة منازل حبس ريعها عليهما ، وكأنه كان بهذا يشارك نهضة اسماعيل التعليمية بقدر ما أوتيه من مال ، ولقد كان هذا العمل مقدرا له من اسماعيل أوفى تقدير ومشجعا عليه من قبله أكبر تشجيع وفى ديوانه مقطعة شعرية تنبىء عن هذا التقدير والتشجيع وماله من مكانة فى نفس اسماعيل نعنى بها الابيات التى قالها وقد شرفه الانجال الامراء توفيق وحسين وحسن بمنفلوط سنة ١٢٨٤ صحبة مراد باشا وعبد الله بك فكرى وسالم بك سالم فقال موريا بهؤلاء ومؤرخا تلك الزيارة المشجعة الميمونة وكان ذا ولع شديد بالتاريخ ومقدرة عظيمة عليه .

يامن سألت عن الاماجد من ومن أبشر بما ترجوه من فيض ومن
وخذ الجواب كما تريد مهذبا فتكون ذا جاه وتحظى بالمنن
توفيق باشا لن يزال محمدا بين البريا والحسين أخو الحسن

فى طالع الاسعاد أشرق نجمهم حازوا المعارف وارتقوا فى كل فن
فهم الكواكب والخديوى بدرهم سعدت به الأوطان وابتهج الزمن
والفرع يتبع فى المكارم أصله عملا بأن الفرض تتبعه السنن
لمرادهم يسعى الزمان ، ومدحهم فكرى به يسلو عن الرشأ الأغن
لازال ركبهم مصونا سالما من أعين الحساد سار أو اطمأن
جعلو السياحة للسماحة مظهراً فبدت عوائدهم على أعلى سنن
وبمنفلوط أتوا فقال مبشرى أرخ فبالأنجال تشريف الوطن

وبعد فقد جاء شعر أبى النصر سجلا لكثير من منشآت اسماعيل يشيد بها وبه ويؤرخها فى زهو واختيال ،هذه فبريقة مغاغه التى انشئت سنة ١٢٨٠ يقول فيها مفاخرا مصانع أمريقه وكان يشرف عليها ولى العهد توفيق

أحيا العزيز الخديوى ملكه فبدت فيه بدائع لاتلفى بأمريقه
وفى مغاغة أنشأ بنية عظمت فى عصرها وحباها الله توفيقه
فبريقة طالع الاسعاد أرخها فاقت بأسنى المبانى كل فبريقه

ولما أنشأ اسماعيل مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ تحقيقا للسير بالشعب نحو اشتراكه معه فى الحكم وتوطئة لايجاد الحياة النيابية التى أوجدها بعد سرت بذلك عيون وانشرحت له صدور ووقع هذا من شاعرنا الموقع السار للنفس المثلج للفؤاد لانه كان كما قال عنه خيرى باشا فيما سبق « يحب أن يرى الوطن قبل موته مكرما مسموع الصوت ذا حرية معتدلة وقوانين عادلة ورعاية حقوق لجميع أهله شامله » فحين توجه الخديوى الى الوجه القبلى فى ٢٧ من رمضان السنة المذكورة ليقلد رؤساء تلك المجالس من أعيان البلاد المستنيرين وظائفهم هذه وبعضا من وظائف المديرين ونظار الاقسام قال أبو النصر يشيد بذلك ويؤرخه

عنايات العزيز بملك مصر لأهل القطر جاءت بالمفيد
أفادتهم فخارا لايضاهى فصار الملك فى خلق جديد
دعاهم للتمدن فاستجابوا ومن اسعاده اقتبس الصعيد
فشرفهم وقدم ساكنيهم وقلد بالمكارم كل جيد

وحيا فى ليال القدر حيا فكان قدومه بيت القصيد
وحكم من يليق من الاهالى وأرشدهم فيانعم الرشيد
وأقصى مايود رضا الرعايا وأحسن مايحب ومايريد
وللاوطان أسعف بالامانى فصار القطر كالعقد الفريد
وحاز من المحاسن كل معنى فأبدى البشر والفرح المزيد
وأصبح كل يوم فيه عيداً فارخ ، فى نظام الملك عيد

وحينما طاف الخديوى أقاليم الوجه البحرى لهذا التقليد عينه بعد رحلة الصعيد قال قصيدة محبوكة الطرفين مطلعها

ألملك مصر معادل ونظير ولمن يقاومه يد ونصير

ومنها

قام العزيز به على قدم الوفا بحقوقه ، وشئونه التدبير
وتوجهت أفكاره لذوى النهى من أهل هذا القطر حيث يسير
فأعد للأحكام من أعيانهم واختير منهم ناظر ومدير
شكرت رعاياه جميل صنيعه إذ صار منهم حاكم وأمير
والقطر فاضل ماسواه مباهيا بمليكه اسماعيل وهو جدير
ملك رعاياه تطير لأمره طوعا وليس لعزمهم تقصير
ملك جزاه الله عن أوطانه خير الجزاء وإنه لقدير
وأتت له الآمال وهو مظفر فمسيرها حقا عليه يسير
وسعت له العلياء تهتف باسمه وتكاد من فرح اليه تطير
والسعد للاقبال أنشد قائلا ألملك مصر معادل ونظير

ولاسماعيل فى هذه السنة أثر خالد على الدهر هو تجديده مقياس النيل بأسوان على يد محمود بك الفلكى بعد اندثاره نحو ألف سنة ولم يفت أبا النصر أن يشيد بهذا العمل الجليل و بالفلكى ويؤرخه بهذه الابيات .

حق على أسوان تبدى شكرها لمليك مصر الداورى اسماعيل
أحيابها المقياس بعد ذهابه بتجدد التقسيم والتعديل

من بعد ألف وهو فى حجب الثرى أبدى معالمه بخير دليل
الماهر الفلكى محمود الذى جلت معارفه عن التمثيل
أبقى التقاسيم التى وجدت به وبغيرها حلاه للتعديل
قالت له أسوان فى تاريخها أرقيت بالمقياس بحر النيل

وفى سنة ١٢٨٨ تمت إقامة القناطر على الترعة الابراهيمية بديروط فكان لها فى التحكم فى المياه والتمكين من الزراعة فى عدة مديريات الشأن الخطير وهنا قال أبو النصر ينوه بهذا العمل الجليل الخطير موريا بأسماء مهندسيها اسماعيل بك وسلامه بك وبهجت باشا ومؤرخا .

أحيت عنايات الخديوى ملكه فسما بطالع سعده التنظيم
وأفاد بحر النيل حسن تصرف حتى ارتوى بالراحة الاقليم
وأراد ثروته فأحكم ترعة أبدى حلى عنوانها ابراهيم
وبنى بديروط القناطر موردا تقسيمها قد زانه التعميم
فكأنها جبل بذروته بدت آثار مصر حادث وقديم
وبرسم اسماعيل بعد سلامة وافى ببهجة شكلها التتميم
لمليكنا اسماعيل فى إنشائها فضل يدوم به له التعظيم
عمت منافعها فقلت مؤرخا ان القناطر نفعها التقسيم

ولما جدد الخديوى باب المقام الزينى سنة ١٢٩٤ قال أبو النصر هذه الابيات مؤرخا بها تلك القربى له إلى الله وهى منقوشة على الباب المذكور .

من آل طه التمس ما تبتغى فبهم ينال أقصى الامانى كل ذى أمل
ولذ بباب تسامى فى العلا شرفا فكان كعبة إمداد لكل ولى
حيث الخديوى اسماعيل جدده نور القبول به كالشمس فى الحمل
حب النبى وآل البيت أرخه باب شريف حوى بنت الامام على

ومما ينتظم فى هذا السلك سلك منشآت اسماعيل عنايته الفائقة بترقية مصانع النسيج وتخريج الصناع المهرة فى نقشها وزخرفتها، حتى إذا ما أقيم لها معرض النمسا سنة ١٢٨٩ أمر رحمه الله مصطفى بك العنانى القائم على مصنع الخيام وسائر

المنسوجات السميكة بصنع خيمة ترسل إلى هناك لتكون أعجوبة المعروضات فصدع بالأمر وصنع خيمة ذات جوانب أربعة غير جانب الباب فكان من حلاها خمس مقطعات وثمانية أبيات من شعر أبى النصر رسمت عليها بالخط الجميل ، فأما المقطعات فقد كتبت أولاها على الصدر الذى فيه الباب وفيها التاريخ واسم المشرف على صناعتها المذكور وهى :—

عادات مصر صنائع وبدائع تحلو برسم زانه الاتقان
زادت بأيام الخديوى بهجة فى معرض سارت به الركبان
فلمصطفى بك العنانى أرخوا فى المحفل الاسمى ارتقى صيوان

وكتبت ثانيتها على الجانب المقابل وفيها تاريخ أيضا وهى :

ياذوى الأبصار كم يبدو لكم من أيادى مصر صنع يستجاد
هـذه آثاره تروى الثنا عن خديوى مصر من أحيا البلاد
خيمة باهرة قولوا لمن أرخوها بجـلوا ذات العماد

وكتبت الثلاث الباقيات على الجوانب الثلاثة الأخرى وكلها محبوكة الطرفين

فأولاها

بأفق المعالى وروض السرور تبدت شموس ولاحت زهور
ونادى بشير الصفا قائلا صدور الأعالى أعالى الصدور
ومن صنع مصر بدت خيمة تحلت حلاها بعقد البدور
فصفها سميرى فقد أشرقت بأفق المعالى وروض السرور

وثانيتها

طالع الاسعاد أبدى الابتسام ياندیمى قم بنا نحو الخيام
واسقنى راح المنى فى معرض بالبها يختال فى أحلى انتظام
محفل كم تزدهى أقماره بشموس المجد فى أعلى مقام
حاز بالابداع ما يسبى النهى من صناعات بها ذو اللب هام
طالما أهدى له أتحافه كل قطر وحباه ما يرام
وبه من مصر لاحت خيمة أحكمت أشكالها حسب المرام

خيمة تزهو على أمثالها ذات حسن فادخلوها بسلام
واشكروا صنع الخديوى كلما طالع الاسعاد أبدى الابتسام

وثالثتها

أعد نظرا تجد صنعا جميلا وهأنا قد أقمت لك الدليلا
لمصر محاسن فى كل فن أرى لبيانها شرحا طويلا
وفى التاريخ لو حدثت عنها لما ألفيت ثم لها مثيلا
هى البلد التى حسنت حلاها وأهدت غيرها خيرا جزيلا
صنائعها تدل على علاها ولا زال العزيز لها كفيلا
خديوى مصر من حاز المعالى فأضحى ملكه ظلا ظليلا
أدام الله نعمته عليها مخلدة به جيلا فجيلا
وإن أنكرت ما يعزى اليها أعد نظرا تجد صنعا جميلا

وأما الأبيات الثمانية فقد نقش كل منها على علم من أعلامها الثمانية التى كانت ترفرف فوقها ، ولم يخل بيت من اسم يرادف اسم العلم مع التنويه بالخديوى أيضا

فقد نقش على الأول منها

خديوى مصر أولى بالمعالى وأشرف من تقام له البنود

وعلى الثانى

إذا الأعلام بالبشرى تبدت أجبناها بشكر للعزيز

وعلى الثالث

برايات التشكر قد أشرنا إلى فضل العزيز أبى الفداء

وعلى الرابع

لما علا عدل الخديوى وارتقى فى ملكه رفعت لها الأعلام

وعلى الخامس

رايات اسعاد العزيز ومجده بفخاره بين الأماجد شاهده

وعلى السادس

بيارق إشراق العزيز أبى الفدا لمظهره الأسمى يشير بنانها

وعلى السابع

لاحت بدور العلا فى معرض بهج فكان بدر الخديوى مفردا علما

وعلى الثامن

إذا ما راية الاسعاد لاحت رفعنا للخديوى ألف رايه

ولقد كانت عناية اسماعيل بمكانة مصر وتقوية جيشها مما يطرب له أبو النصر كل الطرب وتأبى عليه شاعريته الا تخليده فى شعره ، فكم شاد بالجيش المصرى وفتوحاته فى عجب وخيلاء ، وليس المقام بالمتسع لايراد طواله فى هذا المقام ، إنما الذى يحلو لنا أن نجلوه هنا مقطعة يسيرة تحدث فيها عن جند اسماعيل فى فتح دارفور سنة ١٢٩١ هـ لأن تلك الحملة كانت لتحقيق عمل إنسانى نبيل هو القضاء على الرق والاستعباد الذى كان يناصره ويعمل له سلطان دارفور ، قال مفاخرا بجند مصر ومباهيا بعمل اسماعيل ومؤرخا ذلك فى آخر مايقول .

سمر الرماح إذا لاحت كديجور جلت حلاها علينا البيض بالنور
والشهب تسبق دهما فى تراسلها كأنها آنست من جانب الطور
وللسهام إصابات لمتشد وقوس من لايبالى غير موتور
وكل من يدعى ما ليس يحسنه ضاعت مساعيه فى غى وفى زور
فانظر هديت طريق النصح مافعلت رجال مصر بحزب غير منصور
غصت بهم فاشر من بعد ماشربت سكانها كأس حتف خارج الدور
وأصبح الطير يشدو فوق مصرعهم بالنعى ما بين ممدود ومقصور
كانت بها حمر فرت لما نظرت والخيل غارت بمجزوم ومكسور
وكان فيها أمير يدعى رشدا لكن أفعاله أفعال مغرور
يستعبد الناس رقا كى يفوز بما يسره من سرار عدة الحور
لم يقبل النهى عن بيع الرقيق له عسفا فباء بذنب غير مغفور
وصار فى زمرة الموتى ولاعجب فبغيه واضح للعمى والعور
وقد تواردت الأخبار فابتهجت رجال مصر بنصر غير منكور
وأشرقت أنجم الاسعاد تالية هلال عيد بعود اليمن مشهور

والنصر أعلامه قالت مؤرخة سيف العزيز له فتح بدارفور

هذا وإنا لنختتم الكلام على موقف أبي النصر من منشآت إسماعيل بموقفه ازاء أجلها خطرا وأعظمها شأنا نعنى بذلك مجلس نوابه الذى أنشأه سنة ١٢٩٦ هـ ١١ يونية سنة ١٨٧٩ فتوج بذلك ما بدأه فى السير بالأمة نحو حكم نفسها بنفسها حين أنشأ مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ على ما تقدم ، فقد أخذت هذه المنشأة بلب أبي النصر وأبى فى تأريخها أن يقف عند الشطرة فى آخر القصيد بل سجل هذا العمل الجليل بمقطعة من ثمانية أبيات جاءت صدورها الثمانية للتاريخ الميلادى وأعجازها الثمانية للتاريخ الهجرى فظفر التسجيل بستة عشر تاريخا ومع هذا احتفظ فى مقطعته بما أراد تأديته من تمجيد لاسماعيل ومدح لنواب الأمة ورجال شوراه وهذه هى : —

أعد لى ذكر من وعت الأمارة لأجمعهم وما احتاجت أماره
منار الفضل إن دعت الدواعى سراة الملك أركان الأداره
لهم فى كل ناشئة ثبات وتدبير به ازدهت الوزاره
خديوى مصر أخبرهم بعهد به زعماء قد عرفت وقاره
وأومأ وده شرقا وغربا الى التحكيم فافهم بالاشاره
هم البصراء حيث تكون شورى لانواع لهم فيها استشاره
وان تك فاهما ولك اختبار لاسرار الهداية والعماره
فصدقنى وخذ قولى بأمن فان القوم بيعوا بالخساره

وهو يعنى بما قاله آخرا ما عصف بهذا المجلس الناشىء من عواصف الحل والتقويض بفعل الحوادث الطارئة القاسية وحظوظ مصر السوداء العاتية

* * *

٢ – أبو النصر وأفراح اسماعيل

لقد شغلت أفراح اسماعيل حيزا ليس بالقليل من ديوان ابى النصر ولاسيما أفراح أنجاله توفيق وحسين وحسن سنة ١٢٨٩ ثم أفراحه حين عاد من الاستانة سنة ١٢٩٠ بفرمان ثبت ماكان أخذه من حقوق بفرمان سنة ١٢٨٣ وزاد عليه، فانه حدثت فترة بعد الفرمان الاول اشتغلت فيها الدسائس عليه لدى الباب العالى، وكان أن حارب هذه الدسائس وطلب المزيد فنجح فى حربه ونال الزياده ،ومن ثم أقام للامة هذه الافراح،فكان أبو النصر يتغنى فى الاولى بعظمة اسماعيل وأبهته ويتغنى فى الثانية بعظمة مصر لما يكسب لها من حقوق ، وهأنذا عارض لبعض ما قال فى كلا هذين اللونين من الافراح مكتفيا فى الاولى بما اختص به توفيق لانه كان دون أخويه ولى العهد والخديوى المأمول : —

قال فى عقد قرانه سنة ١٢٨٩ مؤرخا ذلك الحادث السعيد من قصيده

تلك المسرات كم أبدت لنا تحفا ... تبلغ النفس مما تشتهى أملا
وطالما انتظمت فى جيد زينتها ... قلائد تضرب الدنيا بها مثلا
فاستوف حظك فالاوقات قد سعدت ... وكوكب الانس فى ثوب الصفا رفلا
وبالتأهل توفيق سما شرفا ... وطالع السعد وافاه فزاد علا
نجل الخديوى أدام الله دولته ... مستبشرا بسرور دام واتصلا
لا زال يرقى سما العلياء مبتهجا ... فى ملكه بارتقا أنجاله النبلا
ولا عدمنا له طول المدى منا ... تعم أوطاننا أمنا وحسن ولا
لنستفيد التهانى بالمنى أبدا ... كما فرحنا بنادى العقد إذ حفلا
ناد به من رياض المجد منتزه ... على قصور المعالى دوحه اشتملا
تبدو كواكبه فى أفق رونقه ... يزينها بدر ملك بالبها كملا
فى يوم أنس بشير السن أرخه ... بدا الكتاب وتوفيق العزيز علا

وقال ليلة زفافه فى تلك السنة مؤرخا أيضا من قصيدة بعد مطلع غزلى طويل

أيخذلنى قول الوشاة وعذلهم ... وجاه الخديوى ناصرى ومساعدى

فان الامانى للأنام وجوده ومدحى له لازال سعدى وساعدى
مليك علت أنجاله ذروة العلا فدان لعالى مجدهم كل ماجد
وكم حازت العليا فخارا بمجدهم فهم خير أنجال لأكرم والد
وأصبحت الدنيا بهم فى مسرة بشائرها تحلو لدى كل وافد
وأفراح توفيق تبدى نظامها بسلك تعالى عن توهم ناقد
فللأنس أوقات وللعز مظهر وللحظ اسعاف بدرك الفوائد
وهذى أويقات الصفا بابتهاجها تلوح كحسنا زينت بالقلائد
تباهى بها بدر البهـا فكأنه بأفق المعـالى لاح بين فرائد
جليل المزايا سالمتـه يد العـلا وقام له بالعهد أعـدل شاهـد
تسامى به نظم القريض براعة وجيد حلاه زان عقد الفرائد
على أن مثلى قاصر عن مديحه ولو جاء فى البشرى بأعلى القصائد
ولكن بشير اليمن قال مؤرخا تزوج توفيق أحب المقاصـد

ولما أهدى السلطان لولى العهد توفيق النشان المجيدى سنة ١٢٨٩ هـ فرح بذلك الخديوى إذ جاء هذا الاهداء دليلا على صفاء الجو بين الخديوى والسلطان بما مهد له من بذول وما وثقه به من صلات كان منها زواج توفيق من البيت السلطانى العثمانى المالك فان زوجه كانت بنت الهامى باشا وبنت أخت ولى العهد إذ ذاك والسلطان عبد الحميد بعد . وقال أبو النصر مهنئا بذلك ومؤرخا له .

حلا مورد الاسعاد والفخر والعلا ودامت مزاياه وقد عم فضله
وفاقت معاليه على كل مورد ورقت معانيه وكم راق نهله
بعز مليك عند سلطان ملكه وناهيك فرع طاب فى الجد أصله
مليك له جاه رفيع مؤيد أظل الورى بالأمن لا زال ظله
به دولة الاسلام زاد افتخارها خليفة خير الخلق والعدل عدله
تحلى خديوى مصر من در كنزه بعقد سما قدرا به خص نجله
نشان مجيدى جليل مجوهر من الرتبة الأولى وهذا محله
فقل ما تشأ فى نظم تاريخه وصف نشانا مجيديا وتوفيق أهله

أما أفراح سنة ١٢٩٠ فان الخديوى بعد أن وثق صلاته بالباب العالى على ما تقدم سافر فى أواخر سنة ١٢٨٩ الى الآستانه فى تلك الرحلة التى صحب فيها شاعره أبا النصر والتى تقدمت فيها لصاحبنا تلك القصيدة التى وصف فيها الآستانة وأرخ فيها عيد جاوس السلطان عبد العزيز وتفاوض فيما كان مهد له من طلبات وأجيب اليها وعاد بهذا النصر الى مصر سنة ١٢٩٠ وأقيمت الأفراح كأحسن مما أقيمت لأفراح الأنجال ، وكان لشاعرنا فى ذلك جولات شعرية متعددات النواحى : —

فبينا تراه يذكر هذا النصر ذاته فينوه به ويؤرخه فى مطولات يقول فى إحداها بعد مقدمة غزلية طويلة :

دعونى أداوى النفس من لوعة الهوى ... برشف لماه أو بتقبيل خده
ولا تعذلونى حيث عذرى واضح ... وسائل دمعى لا يقال برده
على أننى أدركت حسن تخلصى ... بيمن خديوى مصر صادق وعده
مليك عزيز أكسب الملك عزة ... وألبسه تاج الفخار بمجده
وقد مدن الأوطان حتى تقدمت ... وعم رعاياه بوابل رفده
وأحيا لأحياء العلوم مدارسا ... تبدل غى المستفيد برشده
وفى كل عام قد تعود رحلة ... إلى خطة تزهو بطالع سعده
يؤم بها دار الخلافة مخلصا ... إلى ملك وفى له حفظ عهده
وقابله بالبشر محتفلا به ... وحياه إذ وافى باخلاص وده
حباه امتيازات بفرمان حظوة ... تقاصر عنها من مضى قبل عهده
فيامصر عن تلك المكارم حدثى ... فحظك قد وافى بغاية جهده
وجاء بشير الأنس يروى حديثه ... ونادى ببشرى قربه بعد بعده
يقول أرى الأرجاء نورا تلألأت ... وفى الثغر قد لاحت طلائع جنده
كواكب إقبال بموكب ماجد ... بشير بأعلام البها تحت بنده
ووافق عيد النيل عيد قدومه ... فيانيل نلت اليمن من فيض مده
فلا زال بالاسعاد فى كل رحلة ... يروح ويغدو حائزاً فوق قصده
ولا زال بالانجال فى عز ملكه ... يفوز بما يقضى باذلال ضده

ولا زالت الأشعار تهدى لبابه وتحفظ من نقض الحسود ونقده
فما الفكر إلا قاصر عن مديحه وما الشعر إلا واقف عند حده
وأقصى التهانى أن أقول مؤرخا أدام الخديوى صفو مصر بعوده

إذا هو يعد عدة مقطوعات مؤرخة تكتب على الزينات بعابدين والجزيرة كان المكتوب منها على باب عابدين الأول

مصابيح البشائر والتهانى لها فى الملك آيات مبينه
بتشريف المليك نقول أرخ لعودته مسرات بزينه

وكان المكتوب على بابها الثانى :

بدا طالع البشرى وعم سروره وعيد الصفا وافى عن البشر معربا
وداعى التهانى قال يامصر أرخى بعود الخديوى أصبح القطر معجبا

وكان المكتوب على بابها الثالث

كواكب اسعاد تلوح بزينة بعود الخديوى فى مطالع سعده
فيا أنس أقبل يامسرات أرخى أدام الخديوى صفو مصر بعوده

ثم كان المكتوب على باب جسر قصر النيل الموصل الى الجزيرة وكان القدوم موافقا وفاء النيل كما تقدم .

بشير الهنا حيا فأحيا نفوسنا وبلغنا مما نود الأمانيا
وطاف برايات التهانى مؤرخا قدوم الخديوى سير النيل وافيا

وكان المكتوب على باب الجزيرة الأول .

أشرق الملك بازدهاء التهانى حيث وافى أبو الفدا بالسلامه
وابتهاج القدوم قد أرخوه عودت مصر بالقدوم الكرامه

وكان المكتوب على بابها الثانى

يا أهل مصر تسابقوا لحظوظكم واستبشروا
فالسعد قال مؤرخا آل الخديو فاشكروا

٣ – ابو النصر ومواسم اسماعيل

لقد كان مرور المواسم على اسماعيل يهز من شاعره أبى النصر المشاعر ويجعله يصوغ شعوره نحوها فى كثير من القصيد الفاخر الصادر عن إخلاص حق وولاء صميم، ولعل أكثر هذه المواسم تأثيرا فى نفسه واستيحاء لشعره كان عيد ميلاد إسماعيل ولعله لهذه المكانة له عنى بتاريخه أوفى عناية وحفل به أوفى حفل، هاهوذا يؤرخه عشرين تاريخا هجريا لسنة ١٢٩٤ فى مقطعة تبلغ عشرة الأبيات فى كل شطر من أشطارها تاريخ ومع هذا احتفظ للمعنى الصادر عن نفس مخلصة لما تقول بشىء من السمو قال :

خليلى إن الكون لاح ابتهاجه ودوح تهانى الأنس تجلى أزاهره
وبشرى سرور داوم الأمن والمنى أعادت لنا يوما حوى اليمن شاكره
به مولد دامت عنايات من سعى ليبدى تشريفا به وهو زائره
لقد سرنا أنس الخديوى بعوده بأرفع مجد والمعالى تسامره
دعانا بتشريف نهنيه دائما ونبدى ثناء عطر الكون عاطره
لديه وردنا منهلا ، عذب طبعه يروح فى وقت اللقا من يبادره
فما ألطف النادى وما أوضح الندى يروق موافيه من البشر باهره
وإنى ولو أنفقت كنزا ملأته بيانا فكم فى المدح أسرف شاعره
فيانبلا الاخلاص للفوز بادروا فمولد إسماعيل جاءت بشائره
عوائده تروى أحاديث مدحه صحاحا وأشهاد الأمان مآثره

وإنما قلت بشىء من السمو لأن التعمل لتأريخ التاريخ كان يقتضى من الشاعر كلفة فى اللفظ والمعنى على السواء ولكن إذا أردت أن تستمع فيه الى شرف المعنى وسجاحة اللفظ فأصغ إليه حيث يقول فى التهنئة بهذا الميلاد فى غير تاريخ من قصيدة طويلة .

إذا أطنب المداح فيك وأكثروا فأنت خديوى مصر والفضل أشهر
وآمالنا لا منتهى لورودها على بحرك الطامى وبرك أكبر

وأنت المليك العدل والعدل شاهد رعاياك كم تثنى عليك وتشكر
لك الله إذ أوليتنا كل نعمة بها نتباهى بيننا حين تذكر
بمولدك الأسمى زها الملك وازدهى وسرت به الأوقات والحظ أوفر
وأضحت الى مرءاك تصبو نفوسنا وحبك مابين الورى ليس ينكر
وأبدت ليالينا كواكب أنسنا كأن عقود الدر فى الجو تنثر

وفى كل موسم إسلامى من كل سنة هجرية كان أبو النصر يرفع الى مقام اسماعيل تهنئته بالموسم منوها بفضله على النهوض بمصر وتمدينها، كمستهل السنة ونصف شعبان وحلول رمضان وليلة القدر وعيد الفطر وعيد الأضحى . على هذا كانت سنته طوال عهد اسماعيل وهذه مقتطفات يسيرة شواهد على تلك المناسبات من مطولاته الكثيرة

قال فى مستهل سنة ١٢٩٠ بعد مقدمة غزلية طويلة مع التاريخ فى آخر شطر منها .

فمن منصفى والناس فى الحب لم تزل لمن حب عذالا وشاة وحسدا
ولكن لى صبرا جميلا على الهوى أكابد أشجانى وأبدى تجلدا
على أننى لا زلت عنهم بمعزل فانى غنى بامتداح أبى الفدا
مليك سما أوج المعالى بمجده عزيز بأنواع المزايا تفردا
جواد حبا الأوطان أحسن حلة وأخصبها أرضا وأكسبها ندى
له منن تحيى الوجود ، وجوده يفيد من استسقى غواديه سؤددا
فمن كفه والمستمدين جوده ترى مصدرا للمكرمات وموردا
أفاض على الدنيا عوائد بره وشتت شمل المبغضين وبددا
وقد أقبل العام الجديد بسعده يقول له أبشر فلا كانت العدا
فحق على مثلى يبشره به وينظم فى بشراه درا منضدا
ويدخل من باب التوسل شاكرا صنيع مليك بالقبول تعودا
وما دمت حيا لا أزال مؤرخا أهنى الخديوى كل عام تجددا

وقال فى ليلة النصف من شعبان سنة ١٢٩١ بعد مقدمة غزلية خمرية طويلة مؤرخا فى آخرها أيضا .

تقيمنى لوعة الشاكى وتقعدنى كلها ألزمت أجفانى الأرقا
لكننى لم أزل فى أمة أمنت حيث الخديوى حمى أوطانها ووفى
ليث المهابة جار المستجير به فى سخطه ورضاه نعمة وشقا
من غيث جدواه أغنى كل ملتمس وبأسه زاد من لايرعوى قلقا
فى كفه لو ترى سيفا يجرده أبصرت برق سحاب ممطر برقا
ولو تخيله ابث العرين إذا ماصال لارفض مما راعه عرقا
برب الندى بر طالما ملئت خزائن لامرىء من بحره ارتزقا
أحيا المآثر حتى قال مادحه هذا الذى ألف الخيرات واستبقا
ساد الألى أثبت التاريخ مالهم من الفخار وأنسى ذكر من سبقا
سارت بسيرته الركبان فامتلأت قلوب حساده من حسنها حنقا
لكنه لم يزل بالحق معتصما والله يحفظه من شر ماخلقا
ولاتزال به الأنجال فى شرف يسمو بتوفيق عز كامل وبقا
فانه اعتاد إحياء المواسم فى أيامه فأرانا عطفه نسقا
فى كل شهر إذا مالاح طالعه سمعت كل لسان بالثنا انطلقا
ورأية النصر لازالت مورخة بنصف شعبان صفو للمليك رقى

وقال يهنىء بالصوم وليلة القدر سنة ١٢٩٠ معددا أفضال الخديوى على مصر ومؤرخا أيضا

إذا الصوم وافت بالسرور طلائعه وبدر التجلى فيه لاحت مطالعه
بسطنا أكف الأبتهال تضرعا الى منعم تهدى الأنام شرائعه
وفى رونق الشهر الشريف بدا لنا قبول بفضل الله فاضت هوامعه
فصمنا وقمنا واجتلينا بأنسه عرائس روض أطربتنا سواجعه
وفزنا بأوقات الصفا كل ليلة إذا بارق الأنوار ضاءت لوامعه
وصبح الأمانى لاح إشراق نوره بيمن الخديوى حيث عمت سواطعه
جليل المزايا كم له من مآثر جميل السجايا كالنسيم طبائعه
له الله كم أسدى وأبدى فوائدا تساوى بها دانى المكان وشاسعه

وما مصر الا الكنز كان مخبأ فأضحت به منها تلوح ودائعه
حياها من الأنهار ماعم نفعه بآرائه والحزم ترجى منافعه
وشاد مبانيها ومدن أهلها بأقرب عهد والزمان مطاوعه
عهدناه برا بالرعايا فبره هو البحر يجرى والأمانى تتابعه
وما رد راج أم كعبة جوده بل البشر يلقاه وتقضى مطامعه
وكم صادفت أدنى الورى منه لحظة فدانت له العليا وسادت توابعه
له فى نظام الملك جند مظفر سما بعده بالنصر والسعد رافعه
تسامت به الأنجال مجدا وسؤددا فاسعادهم فى الكون عز مضارعه
بمدحى له أصبحت أشرف ناظم تروق معانيه وترقى بدائعه
وانى لمهديه لدى كل موسم من النظم مايحلو ويمتاز بارعه
وإن كنت فى أهل اليراعة قاصراً مقلا فقد يمشى مع الركب ظالعه
على أن مايروى من الشعر دون ما روته معالى مجده وطوالعه
فأرجو الذى أولاه ملكا مؤبداً يؤيده دوما على من يخادعه
ويبقيه بالنصر العزيز مبشراً ولازال بالبشرى تسر مسامعه
ولا غرو ان قال "بشير مؤرخا ماليك كريم ليلة القدر طالعه

ومع تعرضه لليلة القدر كلما هنأ بشهر الصوم كان يختصها أحيانا بالشعر كأن يقول فيها من قصيدة مؤرخا سنة ١٢٩١

هل يجعل الصبر قوتا فى الغرام سوى صب لديه التدانى والبعاد سوا
إن زاره الطيف لايلفى به رمقا كأنه فى زوايا الاستتار ثوى
أليف سهد له الأفلاك شاهدة بأنه والد صب حليف جوى
خاف الملام فأخفى مايكابده صبرا ومانشرت أيدى الشجون طوى
وهام فى ملك بر يورخه فى ليلة القدر يرقى للعزيز لوا

وقال مهنئا بعيد الفطر لسنة ١٢٩٤ من قصيدة بعد مقدمة غزليه طويلة مؤرخا فى آخرها .

أما كفى لائمى مانى فيعذرنى وما أراد بتعنيفى وماقصدا
أراه فى الحب لايدرى مكابدتى ولو درى لوعة الشاكى لماجحدا
لكننى لست ممن يتقيه ولو أعد لى من تباريح الأسى عددا
وكيف أخشى وجاهى فى التخلص لى مدح الخديوى وحاشى أن اضيع سدى
فهو النصير لشاك عز ناصره وبحر جدواه يروى كل من وردا
وكم له من سجايا كلها همم ومن مزاياه من نال المنى سعدا
مامد كف سؤال للعلا أبدا وطالما مدت العليا اليه يدا
والمجد أشرف مايعزى لمنتهج سبيل من جد فى جد الهوى وهدى
بالحزم أفكاره جاءت بما عجزت عنه الأوائل حتى قوم الأودا
ومدن القطر إذ عمت مآثره برا وبحرا وفى الأقطار كم حمدا
وهذه نعمة من الاله بها ونعمة الله لانحصى لها عدداً
شهر الصيام توالى أنس بهجته والعيد أقبل يهدى بهجة وندى
وقد سما فى سماء اليمن طالعه وكوكب العز أبدى للأنام هدى
وجمل اليوم بالتشريف مبتهجا وبالوقار له عدل البها شهدا
فكان حفا علينا أن نديم له حسن الدعاء ليبقى دائما أبدا
لازال مسترشداً أنجاله ليرى توفيقهم كاملا حسنا ومتحدا
ودام فى حظوة تسمو بهم فرحا والله حافظه ممن له حسدا
وانى كلما كررت مدحته أرى بحار المعانى لاتبل صدى
حيث المدائح لاتوفى بلاغتها بواجب الشكر لو رام البليغ أدا
وتلك تهنئة قالت مؤرخة عيد جميل بتشريف العزيز بدا

وقال فى عيد الأضحى لسنة ١٢٨٩ بعد غزل انتهى بذكر الراح متخلصا منها إلى مايريد ومؤرخا فى النهاية أيضا

لولا اعتصامى بالعزيز جعلتها وردى وهل أخشى ملامة لاحى
وصرفت أوقات الخلاعة كلها مابين راح تشتهى وملاح
أيليق بمن ينتمى لأبى الفدا إلا انتهاج سبيل كل صلاح

ملك مآثره مواسم ملكه فالناس فى فرح به وفلاح
يمحو بوجه العدل كل ظلامة وكذا الدجى تمحى بنور صباح
كم أعربت أيامه عن عدله حتى غدا فى غاية الايضاح
إذ مدن الاوطان باستحسانه وأنار مصر بدافع الاصلاح
أهديته نظم القريض وانني أرجو القبول فان فيه نجاحى
ولزمت فى الاعياد واجب مدحه لأكون قدوة سائر المداح
لازال فى عيد السرور مقربا حساده للنحر وهى أضاحى
ماحجت الآمال كعبة فضله والسعد لباه بوجه سماح
فهو الجدير بما يروق من الثنا والمجد مستغن عن الافصاح
الله أكبر كم أقول مؤرخا عيد الخديوى أكبر الافراح

وأخيرا ثم آخرا كأن شاعرنا أبا النصر لم تكن كل تلك المناسبات لتشفى منه غلة فى مدح الخديوى اسماعيل والتغنى بمآثره ومناقبه فكان فى غير باعث سوى الرغبة فى نقع تلك الغلة يجلو اليه الفريدة تلو الفريدة بين الفينة والفينة ، وهذه إحدى تلك الفرائد كاملة بمطلعها الغزلى على غير ماتعودنا فيما به استشهدنا ، إيفاء لبعض لما لقصائده علينا وعلى الادب من حق ، قال رحمه الله .

أدرلى كئوس الراح رائقة الورد على خالك المسكى أوخدك الوردى
بروض انتزاه غصنه مال صبوة الى قدك المياس أو عرفك الندى
ولا تخش عذالى وزمزم وعاطنى فان ملامى فى غرامك لايجدى
واياك أن تسعى بها بعد مزجها الى غير من يهواك ياغاية القصد
ودعنى ومن يهوى الملام جهالة فانى كفيل للمفند بالرد
وعدنى إذا دار الحديث بزروة وعدنى فانى قد تمسكت بالوعد
وان تر ذنبا فى هواك اقترفته فرفقا فشأن السيد الرفق بالعبد
تعطف ولا تجعل جوابى «لن ترى» أقلبى من ماء وقلبك من صلد
وجرد سيوف اللحظ ان رمت قتلتى ولا تنس قول الله فى قاتل العمد
ومن لى إذا ما كنت خصمى وحاكمى أيحسن أن أشكو وأنت أخو ودى

على أننى صاد و ثغرك قد حلا فياظمئى هل يدرك الرى بالشهد
وماء حياتى فى لماك علته ولكن علمى لايفيد ولا يجدى
فلا تتبع قول الوشاة فانهم يريدون قتل الصب بالهجر والصد
وانى ولو ألقوا اليك زخارفا لباق على ودى مقيم على العهد
فلا تبتئس بما يقولون واتئد فانى عن السلوان فى غاية الزهد
أعد الليالى فى انتظارك ساهرا وما كنت معتدا وحقك بالعد
وما اكتفت الايام منى بما جرى من الدمع بل رامت مجاوزة الحد
وما هى إلا طوع من أنا عبده يقلبها ان شاء حرا ال برد
فان هى وافت كان فضلا ومنة وان أعرضت مالى عن الصبر من بد
ومالى وللشكوى ولى خير ملجأ أعوذ به من كل نائبة تردى
مليك ترى العلياء تحت ركابه تود التماس المجد من صاحب المجد
فان خدمت مدت لخادمه يدا ومدت لجدواه إذا التمست أيدى
عزيز هو الحرز المنيع حماية لسيرته ذكر يخلد من بعد
عساكره تدعو البغاة الى الردى وحدتهم تغنى السيوف عن الحد
بنادقهم كالسحب لكن قطرها رصاص وصوت الرعد فى أثر الزند
ومن جور هاتيك المدافع إذ غدت مسلطة باتت عداه على وجد
هو الداورى اسماعيل من فاق أصله بتحقيق تثبيت الوراثة فى العهد
وقد دن الاوطان شرقا ومغربا وبالعدل فيها كم يعيد وكم يبدى
فلا زال بالاقبال فى عز ملكه يجدد رغم الحاسدين ذوى الحقد
تمنيت أن أرقى لأوج امتداحه وأدنو لدى مرأى حماه وأستجدى
فكحلت أجفان اليراع لعله يسير إلى بيت القصيد ويستهدى
فقام بخمس راكبا ساجدا كما أشرت اليه ثم أعرب عن قصدى
وخط كما أمليت والله عدتى فجاء بما يهدى إلى خير من يهدى
ونظم عقداً حاز كل فريدة وفاق على الجوزا بواسطة العقد

فرائد مدح فى سلوك تشكر تصان بعون الله عن فرية النقد
فان من فضلا بالقبول فانها تعرف تنكيرى لدى العلم الفرد
وإن كف بالكف الجزيل نواله جنود التماسى بت أهتف بالحمد
وما هو فى الاسعاف إلا كأصله عن الاب كم يروى الندى وعن الجد
ولو أننى أنفقت عمرى مادحا فما أنا إلا من علاه على بعدى
وكم سارت الركبان تشدو بذكره كان لها شوقا الى العلم السعدى

السباعى بيومى
أستاذ بدار العلوم

٢٧ / ٦ / ١٩٤٥

أعلام البيـــــان

فى عصر اسمـــاعيل (١)

للأستاذ عمر الدسوقى

تمهيد :

كانت نهضة محمد على علمية حربية صناعية ، ولم يكن فى حاجة للادب ، ولذلك لم يلتفت إليه أية التفاتة ، وإنما كان فى حاجة لجيش قوى يؤيد عرشه . ويؤسس دولته . وكان كل شىء فى مصر مسخراً لهذا الجيش ، وكل البعثات من طبية وعلمية وصناعية وغيرها إنما قصد بها خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، فالمدارس التى فتحها محمد على ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها ، والكتب التى ترجمت أسهمت كلها فى النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين وقادة الرأى والاصلاح فى عهد اسماعيل إلا شبانا فى عهد محمد على ، ولقد أفادوا مصر أكبر فائدة فيما بعد ، وفى طليعتهم رفاعة الطهطاوى ومحمد على البقلى ، واسماعيل الفلكى ، وعلى مبارك . إن محمد على وإن لم يهتم بالأدب إلا أنه مهد السبيل لإعلائه بإحيائه الجامعة العربية ، واللغة العربية ، والأزياء العربية إذ كان يكره من يدخل فى خدمته من الأجانب أن يتزيوا بالزى العربى ، ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا فيها أو ينقلوا كتبهم إليها ، ويحتم على رجال البعثات الذين أتموا تعليمهم أن يؤلفوا أو يترجموا فى الفنون والعلوم التى تخصصوا فيها ، ويقدموا

---

(١) محاضرة القيت فى نادى دار العلوم يوم الاثنين ٢ من يوليه سنة ١٩٤٥

إليه ثمرة عملهم فكان هذا أول بعث للغة العربية بعد أن كانت مقبورة مطمورة على يد الاتراك .

ثم كانت فترة ركود فى عهد عباس وسعيد كادت تعصف بهذا الغرس الطيب الذى وضع فى أرض خصبة قوية ، إلا أن الحظ وانى الأمة العربية فلم تطل تلك الفترة وشفيت مصر من النكسة ، وجاء اسماعيل العظيم فكان عهده الصبح الذى بزغت فيه شمس الآداب العربية التى تتمتع اليوم بضوئها الساطع ، وحرارتها القوية وأشعتها السابغة ، وما تضفيه على عقولنا من خيرات وبركات أوشكت أن تربى على ماتمتع به أسلافنا فى العصر العباسى .

إن ماقدمه اسماعيل من خدمات جليلة للغة العربية وآدابها غنى عن البيان والتعريف وحسبنا أن نذكر دار الكتب ، ودار العلوم ، ومئات المدارس ، والبعثات المتعددة التى جدد إرسالها ، والمطابع التى أخذت تحيى آثار السلف ، وتشجع انتاج الأدباء والمعاصرين ، والصحف العديدة التى عملت على نشر الثقافة وإيقاظ العقول ، ثم تشجيعه رجال الأدب والعلم ، وتقريبهم منه . وكم كنت أود أن يتسع لى الوقت فأخوض فى كل هذا بشىء من التفصيل ، كى ندرك إلى أى مدى نحن مدينون فى نهضتنا العلمية والأدبية الحالية إلى مابذل فى عصر اسماعيل ، ولكن هذا يحتاج إلى أكثر من محاضرة ، ونحن اليوم حول أعلام البيان فى عصر اسماعيل .

سارت النهضة الأدبية سيراً طبيعيا متدرجة من التقليد إلى شىء كثير من التجديد وبذلك تميز فى عصر اسماعيل مدرستان أدبيتان : الأولى مدرسة المقلدين ، والأخرى مدرسة المجددين .

مدرسة المقلدين :

كان من آثار النهضة التى ابتدأها محمد على وواصلها اسماعيل أن وجدت بمصر دواوين شتى بعضها للحكم والسياسة ، وبعضها للكتابة والتعليم ، وكان من الطبيعى أن يلتفت الادباء الذين أخذوا يلتمسون المناصب ويرتزقون بأقلامهم إلى الوراء لعلهم يجدون من يكون لهم نموذجا يحتذونه ، فرأوا فجوة كبيرة تقطعت فيها أسباب اللغة العربية وضعفت وانحلت ، وحلت محلها اللغة التركية فى الدواوين ، ومن تجرأ على

الكتابة بها لم يسلم من اللحن الفاحش،ولم يعد فى استطاعته أن يأتى بالمفهوم المقبول بل أغرق فى البديع حتى استغلق مايكتب ، وأتى بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصاباً ممن سبقه ، ثم مدوا طرفهم إلى أبعد من هذا العهد المظلم، إذ لم يجدوا فيه غناء ، فوجدوا طلبتهم فى مأثورات القاهرة إبان عهد صلاح الدين وخلفائه من ملوك الدولة الايوبية ، وأصبح القاضى الفاضل وابن مطروح ، وبهاء الدين زهير،والشاب الظريف قدوة موموقة لكل أديب يتطلع إلى رئاسة الانشاء فى الديوان أو ينشد الحظوة والقربى من أمير البلاد أو كبار الاعيان فيسلك بين الندمان .

عكف هؤلاء الادباء على آثار العهد الايوبى يدرسونه ويقلدونه فطولوا أيام البقاء لهذه المدرسة القديمة التى اختفت فيها شخصية الاديب وتوارت انفعالات نفسه وأحاسيسها تحت ركام كثيف من الصنعة ، والتزلف ، والتقليد .

كان الادب فى هذه المدرسة عبداً للملوك والامراء ، والاعيان والكبراء يشيد بأعمالهم ويخلد مآثرهم ويدخل السرور على نفوسهم ، ويثنى عليهم فى كل مناسبة سواء كانوا عادلين مصلحين أو بطاشين مفسدين ، فكل حاكم سيد الوجود فى زمانه آت بالمعجزات فى أعماله معصوم من الخطأ فيما يأتى به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ماغصب بل يمدح على ماأنفق ؛ والاديب الكبير مداح للامير الكبير ،وهجاء لاعدائه وشانئيه ؛ والاديب الصغير مداح للغنى الصغير يتملقه ويتغنى بفضله وينهش أعداءه .

لم يكن للاديب فى هذه المدرسة هم إلا إرضاء سيده ومن تعلق بسببه ، فيزف إليه المدائح فى كل مناسبة بل وفى غير مناسبة ، فأعياده وأفراحه ، وسفره ، وقدومه ومنشآته كلها فرص للنظم وتقديم المدح والثناء، ولقد رأيتم نموذجا لهذه المدرسة فى محاضرة الاستاذ الجليل السباعى بيومى عن السيد على أبى النصر .

تتبع أدباء هذه المدرسة ماشاع بين أدباء الدولة الايوبية من أغراض النظم والنثر التى كانت محببة إلى سراة القاهرة،ولا تزال عالقة بالاذهان من ذياك العهد حتى عصر اسماعيل،وأخذوا يقولون فى هذه الاغراض تكلفا وتقليدا ،فالطرائف المنظومة

وحل الالغاز ووصف البساتين والنفائس والرياض ، والغزل المصطنع ، والمرح والاستعطاف والاعتذار ، والشكر صارت كلها عنوانا لظرف الاديب . وسمت الكاتب والناظم وشارة النديم المصاحب للملوك والامراء .

وكما قلدوا أدباء العهد الايوبى فى الدوافع التى من أجلها تنظم القصيدة وتدبج الرسالة ، وفى الأغراض التى ينشىء فيها الكاتب وينشد الشاعر ، قلدوهم كذلك فى القالب الذى يعبرون فيه عن هذه الاغراض فاحتفوا بالجناس والتورية والألغاز ، والتواريخ ، والسجع ، لان هذا النوع من الادب كان الادب المختار عند أمثال القاضى الفاضل وابن مطروح .

ومن ذلك نرى أن أدباء هذه المدرسة لم تكن لهم شخصية ما وأنهم لم يكونوا أحراراً فيما يقولون أو يكتبون أو ينشدون ، ولا فى الصيغ التى بها يفصحون ويعبرون ولم يكن لحبهم وبغضهم ، وشعورهم الشخصى أى قيمة ، لأنهم كانوا مسخرين لغيرهم ولم يكونوا ملكا لانفسهم .

وأدباء هذه المدرسة نوعان :

(ا) أدباء الدواوين

(ب) والندماء

أما أدباء الدواوين فخير نموذج لهم ، وأصحهم لغة رأبرعهم تركيبا وأسلمهم فهما وتفكيرا وأعلاهم صيتا وجهارة شأن فهو عبد الله باشا فكرى . وهو يعطيك صورة واضحة للوزراء الكتاب فى أخريات الدولة العباسية والدولة الايوبية ، وقد اتخذ له خاتما رقم عليه الآية : « إنى عبد الله آتانى الكتاب » لأن جملة حروفها توافق سنة ميلاده بحروف الجمل . وقد كان اتخاذ أمثال هذه الخواتم من شارات الكتاب ، وذوى المناصب الوزارية فى أيام العباسيين ومن حذا حذوهم من الفاطميين والايوبيين .

وكان مثلهم ينظم الشعر ويكتب الرسائل ، ويتولى التعليم وإدارة المدارس

ولد بالحجاز (١) من أب مصرى ، وأم من المورة ، ومات أبوه وهو صغير فكفله بعض أعمامه ودخل الازهر وتعلم العلوم العلوم الشائعة فى عهده من لغة وفقه وحديث

(١) ولد فى سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م وكان أبوه محمد مرافقا فى الحجاز للجنود المصرية

وتفسير وعقائد ، واعتنى باللغة التركية حتى اتقنها لأنه كان ينشد وظيفة فى الذولة وقد وظف وهو دون العشرين، وما زال يترقى فى أعمال الترجمة حتى بلغ من شأنه أن يصاحب الخديو اسماعيل عند سفره إلى الاستانة (١) « لاستكمال الرسوم من تقليد الولاية وأداء الشكر لآل عثمان » ثم ندبه الخديو لملاحظة الدروس الشرقية التى كان يتعلمها انجاله الامراء توفيق وحسين وحسن ومعهم الامير ابراهيم أحمد والامير طوسون سعيد فهو من الديوانيين بالتربية والنشأة والصناعة .

فكان يضع التواريخ بحروف الجمل فى مطالع القصائد وخواتيمها فقال فى فتح « سباستبول » وكل مصراع من مطلع القصيدة تاريخ للسنة .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم هان لنا الصعب

وقال مؤرخا زواج الامير حسين كامل :

أرخ لنحو حسين تزف عين الحياة

وكان يكثر من الجناس فقال فى مدح « إسكار » ملك السويد حين سافر إليها لحضور مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٨ .

وتلا به « اسكار » رب سريره قولا به لذوى النهى إسكار

وقال فى مليح رآه أول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفنه فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلة أبصرنا هلال جبينه علمنا يقينا أنها غرة الشهر

وكان يصف الآنية والازهار ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الايوبيين خلال المنادمات والمطارحات كما قال فى نار موقدة فى فحم حوله رماد .

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب
أرض من المسك كافور جوانبها يموج من فوقها بحر من الذهب

وقال فى الورد :

كأن وردا لاح فى كمه يزهو بثوبى خضرة واحمرار

(٢) كان ذلك فى سنه ١٨٦١ م .

ياقوتة فى سندس أخضر أو وجنة خط عليها العذار

ونجد حكمه لاتشبه تلك التى كانت ترد عفواً أو نتيجة القريحة الصافية، والطبع الفنان فى شعر الجاهليين والمخضرمين ، ولكنها تشبه حكم الاباء المجربين ، والعلماء الواعظين والمعلمين المؤدبين من ذلك قوله :

إذا رمت المروءة والمعالى وأن تلقى إله العرش براً
فلاتقرب لدى الخلوات سرا من الأفعال ما تخشاه جهرا

ومن ذلك قصيدته المشهورة .

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر وقم للمعالى والعوالى وشمر
وسارع إلى مارمت مادمت قادرا عليه وإن لم تبصر النجح فاصبر

وهذه لعمرى نصائح معلم لاوحى شاعر

وربما كانت قصيدته الرائية التى أرسلها إلى الخديو توفيق بعد أن اتهمه بالاشتراك فى الثورة العرابية، وحبسه وقطع معاشه من خير ماقال، ولكنها تحتوى على معان تخطر لكل من يعتذر وليس فيها جديد إذ لم يزد عليها من وحى الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته فى التعبير ومنها يقول :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا بأمر فقد جاءوا بمازوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد ولاكنت من يبغى مدى عمره الشرا
فعفوا أبا العباس لا زلت قادرا على الأمر إن العفو من قادر أحرى
وحسبى ما قد مر من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى أكابد فى أيامك البؤس ، والضرا

ونلاحظ فى هذه القطعة أن فيها شيئا من الحرارة والعاطفة ، لأنه متألم ، ولذلك جاءت محررة من القيود ، قريبة من أدب الطبع وإن كان طبع الذليل المستعطف .

ولعبد الله فكرى بعض قطع يستروح منها الناقد نفحة الشاعرية ، وذلك حين

يطلق النفس على سجيتها ، ويتحرر من هذه القيود اللفظية والأغراض التقليدية ، ولعل أجملها ما قاله فى المجون :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها على طالبى معروفها فى الهوى سهل
تعلقتها لا فى هواها مراقب يخاف . ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة من الأصفر الأبريز زلت بها النعل
فلما تعارضنا الحديث تعرضت لوصل ، ومن أمثالها يطلب الوصل
فرحت بها فى حيث لا عين عائن ترانا ، ولا بعل هناك ، ولا أصل
وبت ولى سكران من خمر لحظها وراح ثناياها ، ومن خدها نقل
وقمت ولم أعلم بما تحت ذيلها وإن كان شيطانى له بيننا دخل

فهذه القطعة تفصح عن احساس الشاعر المسلم ، وما تمليه عاداته عليه ، وما ينم على ضميره فى أمثال هذه المواقف إذا ترك نفسه على سجيتها بلا محاكاة ولا تكلف ولذلك وضحت عليها الملامح النفسية .

أما نثره فكان له فى أسلوبان : أحدهما مرسل يكتب به فى الشؤون العملية والتقريرات العلميه فتغلب فيه ملاحظة المعنى وتقل فيه الأسجاع والفواصل ، ومثاله ما كتبه من جوتمبرج الى الوزير رياض باشا بما شهده فى مؤتمر المستشرقين اذ يقول :

« ثم أشير الى فقمت وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس ، فأتممتها فى الطريق وبيضتها فى أستكهلم فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهار وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها الى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب وبالجملة لى لما أتممت الانشاد ، وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها ، وسادنى بطلب نسختها فأخذها فى الحفلة »

والأسلوب الآخر هو الذى يحتفى بتزويقه وتنميقه ويقلد فيه مدرسة القاضى الفاضل فلا تفوته سجعة واحده ، ويكثر من الألغاز على طريقة المقامات ومثال ذلك ما كتبه الى أحد أصحابه :

« كتبت والذهن فاتر ، من وهن الدفاتر ، والتبييض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والترجمة وكثرتها . والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها ، والنفس وذلتها ، وراتبي لا يكفي أجرة البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت ، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة واعتذر اليوم بالاصيل على العادة »

وقد خلف عبد الله باشا فكرى بعض الآثار الادبية مثل « نظم اللآل فى الحكم والأمثال » « والمقامات الفكرية فى المملكة الباطنية » و « الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية »

وله شرح على ديوان حسان بن ثابت لم يتمه . وله كتاب « ارشاد الالبا الى محاسن أوربا » .

وقد مات دون أن يتمه فأنجزه ابنه أمين باشا فكرى كما جمع كثيرا من كتاباته وقصائده فى كتاب دعاه « الاثار الفكرية »

أما النوع الثانى من مدرسة المقلدين فهم الندماء ، وقد تقدم لحضراتكم نموذج منهم من فوق هذه المنصة فى شخصية السيد على أبى النصر

والمنادمة أيها السادة فن صعب ، يحتاج الى عدة صناعات ، فقد يكفى العالم علمه والوزير تدبيره ، والقائد بأسه وخبرته ، والشاعر نظمه وإنشاده ، أما النديم فلابد له من العلم فى حين ، ومن الرأى فى حين ومن اللهو والفكاهة فى حين آخر ، ومن الكياسة والظرف فى جميع الأحيان . وإذا استغنى النديم عن العلم فى العصور التى يجمد فيها العلم أو يتلبس بوقار الدين فانه يستغنى فى جميع الحالات عن الفطنة والحذق والنفاذ الى طبائع النفوس وسرعة البديهة فى استطلاع أحوال الرضا والغضب والتبسط والانقباض والاحتيال على الترفيه والتسرية ، وعرض المطالب فى أوقاتها والايماء بالاشارة الناضجة فى مناسباتها ، والتلطف فى أحاديث الجد والشدة حين تلجىء الضرورة اليها ، وحفظ الكرامة مع هذا كله حفظا للمنزلة واستيفاء للمنادمة .

ثم إن الأضحاك ليس بالشىء الميسر للنديم فى جميع أحواله ، فقد يفتر طبعه ، أو يخبو ذهنه فى ساعة من الساعات ، وقد يفهم النكتة على وجه لا يفهمه سامعوه ،

فلا غنى له إذاً عن رياضة الناس على سماع نكاته واستحسانها وإن سخفت ونبت بها بعض الأذواق .

فالمنادمة - على لطفها ورقتها - صناعة عسيرة شاقة لايحذقها النديم ، ولا يبرع فيها الا بعد مران طويل ، ورياضة عصية .

وقد كان عظماء مصر وأعيانها ، وأمراؤها فى القرن الماضى يتشبهون فى مظاهرهم بعظماء العصور السالفة ، ويودون أن يروا أنفسهم فى حال تشبه تلك الحال القديمة وحاشية تماثل تلك الحاشية ومجالس تحيى مجالس الأمارة التى يسمعون بها أو يقرؤون عنها .

ولذلك كانوا يعقدون فى بيوتهم وقصورهم مجالس يختلف اليها العالم والشاعر والنديم وطالب الحاجـــة ، ومن يبغى الجاه والشهرة والتعلق بأذيال العظماء ، وينصتون فيها الى النكات المتبادلة بين الحاضرين والنوادر المروية عن الملوك الغابرين والحكام والسروات السالفين ، والمطارحات والمساجلات الأدبية التى تجرى بين الشعراء والأدباء على حد ماكان معروفا فى مجالس الخلفاء والأمراء فى العصر العباسى والعصور التالية له . ووجد الندماء من يشجعهم ويعنى بهم ويغدق عليهم النعم ؛ ويمد لهم أسباب الجاه والثروة وقضاء الحاجات ، فعملوا على إتقان فنهم وكثر التنافس بينهم ومن هنا نشأ أدب المنادمة .

على أن هذا الأدب لم يختلف فى أغراضه ، والثوب الذى ظهر فيه ، والدوافع التى أدت اليه عن مثله فى عصر الأيوبيين والفاطميين إلا بمقدار ما تختلف بديهة عن بديهة ، ومقدرة عن مقدرة فى سياق النكتة ونظم اللغز ، وحبك التاريخ ، والاجادة فى المناسبة .

ومن أشهر هؤلاء الندماء فى عصر اسماعيل السيد على الليثى فكان يجيد شعر المناسبات من تسجيل فكاهة أو تهنئة أو تعزية أو مواساة أو مديح ، ولم يكن الشعر الغرض المقصود بالاتقان والأحكام عنده أو عند سامعيه ، وإنما هو شاعر لأنه نديم . وقد نال الحظوة لدى الخديو اسماعيل ، وصحبه فى سفره إلى الاستانة

سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٦١ م وكان الأدباء يتسابقون إلى مطارحة الليثى ويتفاخرون بمكانته .

ومن شعره يرثى محمود باشا الفلكى :

أرى النيازك عن سام من الفلك مذعورة أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازى وأذهلها فما كت البرق وانقضت عن الحبك

ويقول فى آخرها

الصبر يا نفس واستبقى مناحه أو فالتصبر إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى المجد أرخنا « قد مات محمود باشا المسند الفلكى »

١٣٠٣ هـ

وكثيرا ما يطلب الى النديم أن يسارع الى القول فيما يقع بين يدى مولاه من الطرائف والنوادر ، وأن يثبت ارتجاله باثبات المناسبات كلها واحصاء الاسماء والوقائع التى تنفى الاستعارة والاقتباس . ومن أمثلة ذلك أن كبيراً من الكبراء كان يفرغ تفاحة فى يده بالمدية ليشرب فيها فانقصفت المدية فى أثناء ذلك، فنظر الكبير الى الشيخ الليثى كأنما يستدعيه الى القول فاذا هو يرتجل هذين البيتين :

عزت على الندمان حتى أنهم تخذوا لها كأسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية لان الحديد كرامة للراح

وله اللامية المشهورة التى قالها بعد الفتنة العرابية مستعطفا طالبا الصفح عن الجناة :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول
يافؤادى استرح فما الصبر إلا مابه مظهر القضاء تنزل
قدر غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ساع لحتفه وهو ممن ظن بالسعى للعلا يتوصل

إلى أن يقول عن الثائرين

ويح قوم سعوا لإدراك أمر دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا بأناس من نابه أو مغفل

وعلى هذا النمط تكون مواساة المجالس والندماء فى خطوب الثورة العرابية .

ومن أدباء هذه المدرسة التقليدية من جمع بين النوعين نوع أدباء الدواوين ، والندماء ، ومن أشهرهم وأبرعهم محمد عثمان جلال ، فقد كان بثقافته وتعليمه يؤهل نفسه للوظيفة ، وبطبعه وبديهته نديماً محبوباً . ولد « بونا القس » إحدى قرى بنى سويف سنة ١٢٤٥ (١٨٢٩) ودرس فى صغره اللغات بمدرسة الألسن فى حى الأزبكية ، ثم التحق بقسم الترجمة الذى أنشأه رفاعه الطهطاوى ، وبعد ذلك انتدبته الحكومة للأعمال الكتابية فى وزاراتها ، ثم استوزره الخديو توفيق ، واتخذه فى نفس الوقت نديماً وسميراً لايفارقه فى رحلاته إلى جهات القطر المصرى .

على أن لمحمد عثمان جلال ميزة على غيره من الندماء ، لأنه كان يمثل الطبع المصرى المرح الذى يجيد النكتة المقبولة التى يفهمها الناس جميعا حضريهم وقرويهم ، ولعل مولده بالريف ونشأته بالقاهرة قد هيأت له تفهم الروح المصرية . ولولا تلك القيود التى فرضتها مدرسة المقلدين على أدبه وإنتاجه وشعره وترجمته لكان أول أديب فكه نقادة فى العصر الحديث ، ولكان لنا منه موليير أو أناتول فرانس أو برنارد شو .

كان يجيد الترجمة وقد أبت عليه مصريته إلا أن يصبغ كل ما يترجمه بصبغة مصرية بحتة ، وقد ترجم ما يوافق طبعه ويلائم ذوقه فاختار ترجمة أمثال لافونتين الشاعر الفرنسى وحكاياته ، وذلك لأنه مجبول على ضرب الأمثال وسرد الحكايات كما ترجم بعض روايات موليير الشاعر الفرنسى المسرحى الهزلى المعروف ، وذلك لأنه مطبوع على النقد والتهكم والهزل .

قال أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن » وهو يذكره عند إلمامه بطلائع النهضة الفكرية :

« ترجم أساطير لافونتين وهى مجموعة قصص خرافية صيغت على لسان الطير والحيوان تتضمن عبراً ومواعظ بالغة . وقد أحسن جلال بك اختيار الأمثال العربية التى تقابل هذه المعانى فى اللغة الفرنسية ، وسماها العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » .

ومما جاء فيها مثل البخيل والدجاجة :

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مر تعطيه العجب وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزاً وأنه يزاد منه عزا
وشقها نصفين من غفلته إذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزاً ولا لقيه بل رمة فى حجرة مرمية
فقال لا شك بأن الطمعا ضيع للانسان ما قد جمعا

وكأنى بعثمان جلال لم يؤثر ترجمة لافونتين ولا مسرحيات مولير استعظاماً للأدب الفرنسى ولكن لأن فيها ما يشبه النكات المصرية والأدب المصرى فكأنه بترجمته هذه يقول : هذه بضاعتنا ردت الينا . أو ليست أمثال لافونتين مقتبسة معظمها من كليلة ودمنة ؟ !

وقد كان له أسلوب سهل فى الترجمة الشعرية وإن كان لا يسمو فى البلاغة ولا يسلم من الخطأ .

وهذا نموذج آخر من ترجمته فى قصته السبع حين شاخ من كتاب العيون اليواقظ

السبع وهو الضيغم المشهور أودت به السنين والشهور
وأعجزته نوبة الشيخوخة وتركت جبهته مسلوخه
ثم انحنى وفارقته الهمة وصارت الأيام مدلهمة
وانحط فى الغابة كل الحطة ونقرته فى الجبين البطة
واستحقرته فى الخلا الرعية وطلب الموت بصفو النية
وكيف لا والفرس اقتفاه أوسعه ضرباً على قفاه
والعجل والذئب على عذابه هذا بقرنيه وذا بنابه
وكل ذا وسبعنا لا ينهر على خروج الصوت ليس يقدر
بل نام للمكتوب والأقدار وفوض الأمر لحكم البارى
إذ نظر الحمار جاء عنده وزاده رفسا وأدمى خده

فقال تم الذل والعذاب فوا فضيحتاه يا أصحاب

الموت أولى من أذى الحمار والنار خير من حلول العار

ومن هذه القطعة وسابقتها ندرك تلك الملكة التى وهبها عثمان جلال فى النظم وسهولته وهى تنبىء عن استعداد عظيم للرواية والقصة على الرغم مما بها من ضعف فى الصياغة .

وقد كانت هذه الملكة تنزع به الى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً فى وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضات ، ومن ذلك زجله فى الأزهار، وزجله فى المأكولات، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدومين والخدم وهى باكورة فى وضع الروايات المصرية وتمثيل البيت المصرى والمجتمع الوطنى

ومن ميله للرواية والقصة ترجم رواية « ترتوف » لموليير ومصرها حتى فى اسمها فسماها « الشيخ متلوف » وقد مثلت مراراً

ومن زجله الظريف بيتان ارتجلهما أمام رياض باشا يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية :

الخير عم الناس وفاض ما حد الا واستكفى

الا أنا ياسيدى رياض « وقعت من قعر القفة »

ومن فكاهاته أنه كان مدعوا فى دار محمد بك سكر الكتبى وأحد أدباء عصره للطعام مع بعض الأصدقاء، فاستبطأوه وعندئذ دخل رب الدار الى الحريم ، وبينما هو كذلك إذ سمع الضيوف دقا بالهاون فتساءل بعضهم : ماذا ؟ ألا يزالون يهيئون الطعام ؟ فأجاب محمد بك عثمان جلال : —

إنهم يكسرون راس سكر .

ومما يروى عن سوقه الأمثال فى نكاته: أن « رشمه » نفيسة من التى تجعل لحمير الركوب الفارهة ضاعت من مخازن قصر عابدين ، فدخل الموكل بحفظها على مترجمى الديوان وهو صاخب وأخذ يصيح : أفى قصر الأمير يجترئون على السرقة ؟ وكان جلال بك فى ديوان الترجمة يومئذ فقال له مازحا : لاتحزن ياباشا . تبقى فى بقك وتقسم لغيرك ! .

وربما قيل: كيف نسلك من له مثل هذه الروح، وهذا التجديد فى الغرض ضمن أدباء المدرسة التقليدية، ولكن النقاد فى عصره كانوا يشاركونه فى هذه الروح المرحة ويجتهدون أن يدخلوا السرور على من يحيط بهم من العلية والأصحاب، ونوادر السيد على الليثى مشهورة وفكاهاته معروفة، وربما لم يكن له طبع عثمان جلال، ولكنهما يهدفان لغرض واحد.

لقد حاول عثمان جلال أن يجدد فغلب على أمره، وظل من تلاميذ المدرسة التقليدية وهاك نموذجا من نثره ندرك به إلى أى مدى كان مدينا للمدرسة القديمة مدرسة السجع والجناس والرموز والتواريخ. لقد ترجم رواية بول، وفرجينى الأديب الفرنسى « دى سان بيير »، ولكن جنت عليه المقامة وأسلوبها فتقيد فيها بالسجع فى كل فقرة وفاصلة من عنوان الرواية إلى كلمة الختام فسماها « الأمانى والمنة فى حديث قبول وورد جنة »، وقال فى تصدير الكتاب: « أخرجته من الطباع الأفرنجية، وجعلته على عوائد الأمة العربية، فمن تصفحه بعين النقد، رأى القد على القد، ومن قاسه بمقياس المقابلة، وطبق آخره وأوله، رأى فذاً قرن بتوأم، وعلم أن من ترجم فقد ترجم، ثم كتبته على ورق الجنة، وسميته قبول وورد جنة لمقارنة مخرج الاسمين، ومطابقته فى لفظه اللغتين »

ونراه غالى فى التصير فترجم بول بقبول، وفرجينى بورد جنة، ونراه تعسف فى الأسلوب وتقيد بالسجع والمحسنات شأن أدباء مدرسته. وله كتاب « التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية » على شكل ألفية ابن مالك.

وممن ينتمى إلى هذه المدرسة بنوعيها، محمود صفوت الساعاتى، وصالح مجدى، والسيد على أبى النصر، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم ممن لم يبلغ مبلغهم فى الشهرة والانتاج.

مدرسة المجددين

كان عجبا حقا ألا تظهر فى مصر مدرسة حديثة فى الأدب لعهد اسماعيل بعد تلك البعثات المتوالية التى أرسلت إلى أوربا منذ عهد محمد على، وعادت حاملة كثيرا

من ثقافة الغرب ، وعكفت على ترجمة كثير من الكتب ، مغذية اللغة العربية بشتى الأساليب ، والتعبيرات . ومطلعة على فنون فى الأدب لاعهد لأدبائنا بها من ملاحم وقصص ومسرحيات ، وعلى أغراض فى الأدب لم يخطر لأدباء العرب أن يخوضوا فيها ، ولا سيما الأغراض الاجتماعية والسياسية والخلقية والتربوية .

وكان عجبا حقا ألا تتطور الأساليب وتتحرر من تلك القيود اللفظية التى زادتها ركة وإعجاما ، وتجزل عبارتها بعد مانشر بمطبعة بولاق وغيرها منذ عهد محمد على من آثار السلف ولا سيما كتب الأدب الرفيع التى تكسب المطلع عليها والمهتم بها متانة فى العبارة وقوة أسر ورشاقة لفظ مع سهولة وسلاسة كالأغانى ، والكامل ، والمثل السائر ، ومقدمة ابن خلدون ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب ، وحياة الحيوان وغير ذلك من الكتب القيمة ودواوين كثير من الشعراء المبرزين فى الأدب العربى. وقد غمرت مطبعة الاستانة ومطابع بيروت ، ومطبعة بولاق العالم العربى بهذه الآثار الجليلة .

لاريب أن النفوس كانت مهيأة لتقبل الأعراض الجديدة فى الأدب ، وأن الأذهان كانت معدة لتحطيم تلك القيود اللفظية والمعنوية التى فرضتها عصور الضعف على الأدب العربى وأن كثيرا من الملكات القوية ، والعقول النيرة كانت منتظرة من يفتح لها الطريق ويقودها إلى الجادة حتى تنتج وتثمر وتبتكر ، وتغذى الأدب العربى بالموضوع الطلى ، والأسلوب القوى ، والفكر العبقرى .

ولقد شاء حظ مصر السعيد ، وحظ الأدب العربى المجدود أن ينزل بها فى عصر اسماعيل السيد جمال الدين الافغانى ، وكان أعجوبة عصره ، وقوة محركة عظيمة ، وثورة ملتهبة على التقاليد والضعف والآفات الاجتماعية والخلقية ووجد فى مصر تربة خصبة ، وعقولا مهيئة ونهضة قد خطت خطوات لابأس بها ، فأخذ يوجه ويدبر ويرشد ويرسم خطط الاصلاح فى مختلف نواحى الحياة .

وكان بيته مدرسة يفد اليها عظماء الرجال وأحرار النفوس وخاصة المفكرين والمثقفين ، وكان يتخذ من المقهى مدرسة أخرى يخلق فيها حوله كثير من هؤلاء أمثال عبد الله نديم ، وأبو السعود ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى

وأخيه ابراهيم المويلحى ، ومن الشباب أمثال : محمد عبده ، وابراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب اسحق .

فى هذه المدرسة حول مجرى الادب ، ونقل من حال الى حال ، فبعد أن كان عبد الارستقراطية،وخادم الملوك والامراء والاعيان يسبح بحمدهم ويشيد بمجدهم ، ويتزلف لهم ، ويحسن مساوئهم ، ويذم أعداءهم ، أخذ يلتفت إلى عامة الشعب فيطالب بحقوقهم ، ويدافع عن مظالمهم ، ويهاجم من اعتدى عليهم كائنا من كان ، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم على الحرية ، والخروج من ظلمات الجهل والذلة والفقر والاستعباد،وألا يخشوا باس الحاكم فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فكان أدبا مشرفا على الامراء لاسائلا متملقا للأغنياء .

وهاكم مثلا من دروسه التى كانت سببا فى اشعال الثورة الفكرية والادبية قال فى سنة ١٨٧٨ « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذه المسكنة وهذا الذل — تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والاكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لاحس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس وآثارطيبة . ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

كان جمال الدين يقول هذا لاتباعه وحواريه ، ويريد منهم أن يكونوا رسلا تنطق بدعوته ، وتنفذ خطته . فخيب اليهم الكتابة ، ورسم لهم طريقتها الصحيحة ، وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها ويستكتب لهم من توسم فيه المقدرة . فقد شجع أديب اسحق بعد أن اتصل به اتصالا وثيقا وتلمذ له طويلا على أن ينشىء جريدة اسمها « مصر » وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهرين وضاح » ، ثم أوعز إليه أن ينتقل إلى الأسكندرية ، وأن ينشىء جريدة أخرى سماها « التجارة » ، وقد كتب جمال الدين فى هاتين الصحيفتين مقالات تلتهب حماسة ووطنية منها مقال فى الحكومات الشرقية وأنواعها وآخر سماه « روح البيان فى الانجليز والأفغان » وكان لهاتين المقالتين أثر بعيد لفت الأنظار إلى جريدتى أديب اسحق ، فلقيا رواجاً كبيراً ، ولكن رياض باشا أغلقهما .

وإذا أردنا أن نعرف سمة هذا الأدب الجديد وطابعه وأسلوبه فلنقرأ فاتحة صحيفة « التنكيت والتبكيت » للسيد عبد الله نديم ، ولنستمع الى رأيه فى الأسلوب الحديث وما يجب أن تكون عليه الكتابة الصحفية ، قال إنه لايريد منها « أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها ، لاتلجىء إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ماتقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى »

هذه كانت طريقة تلك المدرسة الجديدة ، يريدون أن تصل كلماتهم إلى الأسماع وأن يفهمها الناس ، ويتأثروا بها ، لا أن تكون مستغلقة عليهم ، مكبلة بأصفاد من الصنعة والتزويق يخفى معالمها ، ويبهم معانيها .

وقد بلغ عدد الصحف المصرية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، ولاسيما فى آخر أيامه عشرين صحيفة وقد أطلق لها حرية الكتابة وكان يميل الى هذه الحرية فى أخريات

حكمه حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى وتحمل عليهم حملات شديدة قوية فكان ذلك يروق اسماعيل . ولكن لم يكن يرضى بحال أن توجه إليه هذه الصحف نقداً ما ، ومن تجرأ على ذلك كان له الويل والثبور كما حدث لصاحب الاهرام حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل يبطش به وبجريدته لولا أن ارتمى فى أحضان فرنسا فحمته .

وكما كان جمال الدين مصدر هذه الحركة وموجهها ، كان أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب التى صدرت فى الاستانة ١٨٦٠ نموذجاً للكاتب الصحفى ، وجريدته قدوة تحتذى ، لأن صاحبها افتن فى تحريرها وتخير موضوعاتها فجمعت بين اللغة والسياسة والادب ، وشق ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فأقبل الناس عليها حتى لم تدع بلداً عربيا إلا دخلته ووجدت فيه رواجا . فكانت هذه الجريدة أكبر مشجع للمصريين على متابعة الجهد الصحفى ، وقد وجدوا من اسماعيل باشا ميلا للأدب والعلم وتقدير الجهود الوطنية ولا سيما تلك التى تحارب الأوربيين .

لم يكن هم هذه المدرسة الحديثة قاصراً على الكتابة بل التفتوا التفاتة لها خطرها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة وانحصارها تقريبا فى خطب المساجد ، وهى خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الاحوال وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، خالية من الحياة والشعور لا تحرك قلبا ، ولا تهز وجدانا ، ولا تثير سبيلا .

فكتب السيد عبد الله نديم مقالا قويا فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الاسلام ودعا الى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشئون الحياة ، وأقدرهم على التأثير وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر فى وضوح ، وتبين الاخطار المحيطة بالأمة فى جلاء وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع فى ديوان الاوقاف ليسمح بالقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد يصل صداها الى كل قرية وبلدة ، وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ،

ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه .

ومما قاله فى هذه المقالة « ألسن الخطباء تحيى وتميت . حكمة اذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن ، وكانت الخطابة فى الاعصر الخالية غير معلومة إلا فى أمتى العرب واليونان . فكانت ساحتها فى جزيرة العرب عكاظا ، ومنابرها ظهور الابل ، وهذه الساحة كانت معرضا للافكار يجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء ، وأمم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه وينثر على الاسماع دررا وبدائع ثم يباريه آخر ، ويعارضه غيره فتتضارب الافكار وتتنبه الاذهان ، وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ويرجع كبار القبائل وأمراؤها الى مايشير إليه الخطيب إن صلحا وإن حربا .

هذا هو مبلغ اهتمام هذه المدرسة الحديثة بالنثر الفنى كتابة وخطابة . فقد جددت فى الموضوعات وفى الاساليب وأخذت تجعل من اللغة عاملا فعالا فى الاصلاح وصورة صحيحة لشعور الامة وآمالها وأحزانها . وكان بودى أن أعرض لأثر هذه المدرسة فى الشعر الا أن ذلك ليس من غرضى فى هذه المحاضرة ولا يتسع له الوقت وحسبنا أن نعلم أن البارودى كان من آثار هذه المدرسة وان عمل فى اخراجه وبلوغه هذه القمة العالية عوامل أخرى

ومن خير من تأثر بهذه المدرسة الحديثة نابغة عصره ، وأعجوبة زمانه فى الذكاء وقوة العارضة ، وطلاقة اللسان ، وبليغ الحجة ، وسرعة البديهة ، ومن ملك ناصية البيان كتابة وخطابة ، وعارض فحول الشعراء جزالة وقوة وضخامة معنى ، السيد عبد الله نديم . ولد فى سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م من أب فقير كان أول أمره بمديرية الشرقية ثم رحل الى الاسكندرية ، وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصنعة ، ثم لم يعجبه هذا العمل ، فاتخذ مخبزاً صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وقد أرسل مصباح ابنه عبد الله إلى المكتب فتعلم ما يتعلمه الصبية فى عهده ، ولكنه أظهر نبوغا وذكاء ورغبة فى مواصلة الدرس فأرسله الى مسجد ابراهيم باشا ، وهو صورة مصغرة من الأزهر ، ولكنه كره حياته ودروسه

وجفافها وحبب اليه نوع آخر من الدراسة هو الأدب، فكان يغشى مجالسه ويسمع شعر الشاعرين وزجل الزجالين ونوادر المتماجنين وقصائد الراوين فيصغى الى كل ذلك في نهم كأنه كله آذان ، ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه وأنه انما خلق لذلك لا للنحو والصرف .

وقد منح حافظة لاقطة . وقدرة على التقليد فائقة فأخذ يحاكى بعد ما اختزن ويغنى بعد ما سمع فأحيانا يوفق وأحياناً يخفق .

والى جانب ذلك تعلم درساً فى منتهى القيمة ، وذلك أنه نشأ فى صميم الأحياء الشعبية، وكان له حس مرهف ويقظة نفس ، فأحاط بلغة الشعب وعاداته وأمثاله ونوادره ، ووجوه المعاملات وصنوف التصرفات ونقش كل ذلك فى لوحات واضحة فى نفسه الحساسة وكان له أكبر أثر فى أدبه . ولكن أباه ضاق به ذرعا لأن هذه الصنعة لن تجلب له رزقا فطرده ، واتجه اتجاها غريباً إذ ابتدأ يتعلم فن الاشارات البرقية ويتكسب منه ونقل الى القاهرة فى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو اسماعيل ، وعاد اليه فى القاهرة حنينه الى مجالس الأدب فاتصل بمجلس محمود سامى البارودى، وهو مجلس عامر ففيه أدب قديم يعرض ، وأدب حديث ينشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغ صياغة مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذاك يتخلله نوادر فكهة ، وأحاديث الأدب الحلوة . وتعرف فى هذا المجلس على كثير من أدباء عصره أمثال البارودى ، وأبى النصر ، والساعاتى . ولكنه غلط غلطة فى عمله بالقصر العالى فطرده خليل أغا المتحكم فى مصر لذياك العهد فسدت فى وجهه أبواب الرزق وتحاشى الناس مخالطته .

وقد جرت له بعد ذلك تجارب كثيرة فمرة معلم صبية ، وآونة يشتغل بالتجارة ولكن تجارته قد بارت . وتنقل فى كثير من أنحاء القطر ، ثم اتصل بشاهين باشا كنج بطنطا وكان رجلا محبا للأدب له ذوق رقيق ، وظرف ووجد فى عبد الله نديم متعته . وقد كاد عبد الله نديم أن يكون من مدرسة الندماء حتى ذلك العهد يعيش بأدبه ، ويمدح كل من يعطف عليه ، ويدخل السرور على أولياء نعمته بالملح والطرف والنكات . وقد حدث له فى هذه الحقبة أن كان جالسا ذات يوم فى قهوة

أيام المولد الاحمدى ومعه طائفة من الأدباء منهم السيد على أبو النصر والشيخ احمد أبو الفرج الدمنهورى الأديب الماجن فطلع عليهم اثنان من الادباتية وهم من تلك الطائفة المعروفة التى كادت تنقرض ان لم تكن قد انقرضت فعلا ، وقد مرا على الحاضرين حتى وصلا الى السيد عبد الله نديم فقال أحدهما :

انعم بقرشك ياجنـدى والا كسنا أمال يا افندى
لحسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جعان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشى وانت تقول لى ما مشيشى
يطلـع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

فرد الادباتى ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك ساعة حتى هزم الأدباتى وانصرف وأبلغ السيد على أبو النصر هـذه الحادثة الى شاهـين باشا كنج فأقام حفلا كبيرا دعا فيه كبار الادباتية ليباروا السيد عبد الله نديم ، وقد باراهم وغلبهم جميعا .

وكما كان بارعا فى هذا النوع فقد كان يجيد النظم فى الشعر الجيد الفصيح . وفى أحد مجالس شاهين باشا كنج تحامل عليه كثير من الادباء فاقترح عليه بعضهم إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجـد وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وقال إنه لايتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى القصيدة :

ومن نكـد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ماءن صداقته بد

فغضب عبد الله نديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدة دالية أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد

الى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتعنت معجزا

ومن عجب الايام شهم له حجا يعارضه غر ويفحمه وغـد
ومن غرر الاخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردفهما بخمسة أبيات على شاكلتهما

وفى هذه القصة وسابقتها بيان لفهم المدرسة القديمة للشعر والفصاحة فهو عندهم مغالبة لسانية ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق وسرعة جواب وارتجال

وقد كان عبد الله نديم من تلاميذ تلك المدرسة القديمة حتى اتصل بالسيد جمال الدين الافغانى فظهر أسلوبه المرسل الذى سمعتم شيئا منه وقد كان يؤثر هذا الأسلوب ويتحرر من كل قيود المحسنات فى كتابته الصحفية بيد أنه ظل متمسكا بالاسلوب المقامى فى رسائله . ومن بدائعه فى العدد الاول من (التنكيت والتبكيت) وقد أدرك أن القصة أحب أنواع الادب الى النفوس . فلجأ اليها واتخذها أداة طيعة لأغراضه الحديثة ، تلك القصة الرمزية التى عنوانها « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وهى قصة شاب صحيح البنية قوى الاعصاب جميل الصورة ، لطيف الشكل ، فى رقة ألفاظ وعذوبة كلام ، وفى عزة ومنعة ، لايشاركه فيها مشارك ، يلتف حوله أهله يعززونه ويؤازونه حتى لاتمتد اليه يد عدو ولا حيل محتال - وبينما هو فى ذلك تسلل اليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر ، فأسلمه أهله اليه انخداعا به . فعرضه هذا الماكر على الاسواق يريه من الغوانى من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فمانع حينا ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا فى مثل هذه الغواية ، وانغمسوا فى مثل هذه الضلالة فسار سيرهم ، وترك النفار ، والإباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الافرنجى (الزهرى) فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه وسرى فى دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه . الخ

وهذه قصة رمزية تنقد تدخل الدول الأجنبية من مراقبة ثنائية ، وإنشاء صندوق الدين وغير ذلك ، ولقد كان بارعاً فى توريته بكلمة « الداء الأفرنجى »

هذا أيها السادة نموذج من أسلوب القصص المرسل وهو نموذج طيب للمدرسة الحديثة على أن له بجانب ذلك أسلوباً آخر شأن كثير من كتاب جيله ، لاهؤلاء الكتاب الذى تربوا ابتداء على يد جمال الدين أمثال محمد عبده ، وابراهيم المويلحى

وسعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، وأديب اسحق . فهؤلاء أسلوبهم جديد وغرضهم جديد وموضوعاتهم جديدة، وإليكم نموذجاً قصيراً من أسلوبه المقامى وقد تعمد أن يقتبس الفاصلة الثانية من آى الذكر الحكيم .

« لاحول ولا قوة إلا بالله ، اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة ، سمعاً سمعا فالوشاة إن سعوا لا يفعلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . . . الخ

على أنه كان يؤثر الترسل ولا يلجأ الى هذا الأسلوب المتكلف إلا نادرا ، ولكى يظهر براعته وتفوقه على أدباء المدرسة التقليدية .

ثم إنه كان فيما بعد خطيب الثورة العرابية الذى أجج نارها وأشبعها ضراما ، وكان يفجر الكلام تفجيراً فيبلغ من النفوس مايبلغ السحر ويحفزها على العمل والهياج والقتال ، متؤثراً فى كل ذلك بتعاليم جمال الدين ، وبما كان فيه من استعداد عظيم ، وموهبة لسانية فائقة جعلت قادة الثورة يقدمونه فى المحافل . كان جمال الدين يخطب الناس وكأنه يضربهم بالسياط ، وكان النديم يخطب الناس فيقابل بالابتسام يضحك لهم ويضحك منهم ويصلح شأنهم ، ويقبل قوله فى فرح ومرح ، ولذلك كان أسف الناس عليه أعظم من أسفهم على جمال الدين حين أبعد كلاهما عن مصر الى الاستانة ، لأن سؤدد جمال الدين فى الخاصة وسؤدد النديم فى العامة .

وكم كنت أود أن أعرض نماذج أخرى من هذه المدرسة الحديثة التى مهدت لجيلنا الحاضر سبيل الكتابة والترسل ، ووجهت أنظارنا إلى آفاق جديدة من الأدب ولكن المقام لن يتسع لأكثر من هذا ، وأرجو أن أكون قد أعطيت فى هذه الصور السريعة العاجلة فكرة واضحة عن البيان فى عصر اسماعيل ، وألا أكون قد أثقلت عليكم . ؟

عمر الدسوقى
المدرس بمعهد التربية للمعلمات

الوحدة العربية

فى القرن التاسع عشر (١)

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

للعرب — كما للأمم القوية — صفات خاصة ، ومميزات بارزة ، جعلت لهم طابعا خاصا وشخصية خاصة بها يمتازون من غيرهم .

وترجع أسباب ذلك إلى أمور من بينها :

اعتزازهم بقوميتهم ، وبكل مقوماتها اعتزازا قويا . فهم يعتزون بجنسيتهم العربية ، ويفخرون بها ، وهم يعتزون بلغتهم العربية ، ويتعصبون لها ، وهم يعتزون بوطنهم العربى ، ويحبونه .

وكذلك حرصهم على تراثهم القديم الذى ورثوه عن آبائهم السالفين : من تقاليد ، وعادات وآثار أدبية ، وعلمية ، وفنية . فهم محافظون عليه كل المحافظة ومهما يحدث فى هذا التراث من تجديد أو تعديل أو زيادة أو نقص — فان جوهره باق لا يتغير أبدا : كالسبيكة من الذهب النضار ، تصاغ حليا ، ثم تعاد سبيكة مرة أخرى فلا يزيدها ذلك إلا بريقا وصفاء .

إن هذا كله كان ومازال مصدر حياة العرب ، والرابطة الوثيقة التى تجمع بين قلوب العرب . سواء من سكن منهم الشام ، ومن أقام بالعراق ، ومن دخل مصر مقيما على ضفاف النيل وفى واديه ، ومن توطن فى افريقية بالسودان وعلى شاطىء البحر الابيض ، ومن هاجر منهم الى أمريكا أو غيرها من بقاع الارض ، ومن وطن الجزيرة العربية الفيحاء .

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم يوم الاربعاء ٤ من يولية سنة ١٩٤٥

كان هؤلاء العرب متآلفين متآزرين لاتهولهم بوارق السيوف ، ولاتفزعهم لوامع الحتوف : عدوهم مقهور ، وطالبهم مأسور ، حتى لحقتهم فتنة عمياء أوقد نارها المستعمرون ، وأضرم أوارها الاجانب المغتصبون .

روع العرب فى القرن التاسع عشر أن وجدوا الشرق طعمة للغرب ، وأن وجدوا بلادهم العربية نهبا مقسما فى أيدى الأفاكين المستبدين ، فاحتشدت فى نفوسهم آلام قاسية ، وذكريات ثاوية ، واحساسات مبرحة ، دفعتهم بقوة وحرارة الى تلمس الوسائل للتخلص من هذه الجراح ، ولإعادة حياتهم القديمة .

هبوا من نومهم أفرادا وجماعات ، وقد اشتد بهم الظمأ الى الحرية التى حرموها والى الحياة التى يجب أن يحيوها . وظهر من بينهم رجال العلم والادب ، وأبطال السياسة والاجتماع ، يوجهون العرب الى الغايات البعيدة السعيدة وينادون بجمع كلمتهم وتوحيد جهودهم . فظهرت فى كل أقليم نهضات قومية ، وثقافية ، وسياسية ، واجتماعية : شعارها العروبة ، ولحمتها وسداها : التعصب للعرب والعربية .

فالسوريون واللبنانيون والمصريون والحجازيون وغيرهم قد ارتبطت بلادهم بوثائق العروبه فأخذوا يتعاونون بحكم القرابة ، والجوار ، والجنس ، واللغة ، والوحدة فى الغايات ، والمشاركة فى الوجدانات . وكان هدفهم هدفا واحدا يرنون اليه بأبصارهم ، ويعقدون عليه خناصرهم ويجمعون من أجله قواهم ، ألا وهو : إبعاد الأجانب ، والتخلص من نير استعبادهم ، ليرفرف على البلاد جميعا علم السلام والحرية ، وعلم العرب والعروبة .

فكان التعاون بوفود الشعراء والكتاب والخطباء والمصلحين ، وبالجمعيات الكثيرة السرية وغير السرية . واستفرغوا فى سبيل غايتهم ، الوسع والطاقة ونالهم ما نالهم من نفى وعذاب فما وهنوا وما استكانوا .

والوحدة العربية الآن ليست بدعة مستحدثة فى هذا العصر ، بل هى وليدة لتطورات اجتماعية ، وتيارات سياسية ، وأخرى وطنية ، وهى ثمرة لجهاد طويل قامت به أمم العرب . وعلى الاخص منذ عصر محمد على باشا ، بعدأن فقدت وحدتها

قرونا ، وتبددت كلمتها أزمانا ، وأحست إحساسا عميقا بألم الوحشة والعزلة ،وألم التفرق والتحزب ، وشعرت بالحاجة اللاحة الى التضافر والتناصر . عندئذ فقط وجهت جهودها إلى الانضمام ، لتجتمع صفوفها متراصة متماسكة كالبنيان . فقامت سوريا ولبنان ومصر والعراق ، وتونس والجزائر وطرابلس بمشروعات لها خطرها فى التعاون الثقافى والسياسى والاقتصادى على أيدى رجال العلم والأدب منذ بداية القرن التاسع عشر .

ورجال العلم والأدب فى كل عصر هم الشعراء ، وهم الرسل للنهضات القومية وهم الألسنة الناطقة بحياة أممهم وميولها ، واتجاهاتها . وهم الاطباء إن عز الدواء .

وكانت سوريا أسبق الأقطار الشقيقة الى ميدان الوحدة ، فمهدت لها بالنزول أولا فى ميدان النضال العلمى والأدبى ثم السياسى والاقتصادى . للخروج من فترة الخمود والهمود،لأنها رأت أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق دفعة واحدة انما تتحقق تدريجا وعلى مر الزمن : شأن كل المشروعات العظيمة تبدأ صغيرة ثم تنمو اذا توافرت لها عوامل النمو والبقاء بمرور السنين الطوال . أو تموت اذا لم تقدر لها إلا عوامل الذبول والفناء .وكيف مهدت سوريا السبيل الى هذه الوحدة ؟ سارعت الى الاخذ من أمم الغرب ما وجدته موافقا لرقيها فى الادب والعلم والثقافة . ووضعت بذور التعاون المعنوى والحسى . فتآزرت مع مصر ولبنان والعراق فى سبيل هذه النهضة .

وكانت مصر أسبق الأقطار الشقيقة فى الاستقلال الادارى والحرية الذاتية . فى عهد المغفور له محمد على باشا الكبير . فتوجهت اليها الأنظار وود كل قطر عربى لو ينال استقلاله الذاتى كما نالته مصر . وبدأت الروح الديمقراطية تنتشر فى الأقطار العربية ، فاستعان محمد على باشا بالكتاب السوريين ،ليشتغلوا فى الدواوين المصرية ولينهضوا بها من أمثال المعلم غالى ، وحنا الطويل ، ورزق الله الصباغ .

كما استعان بالمترجمين من سوريا ولبنان ومن أشهرهم أحمد فارس الشدياق . وهو لبنانى الأصل . انتقل الى بيروت سنة ١٨٠٩ ودرس مبادىء العلوم اللسانية . ثم قصد القطر المصرى وجعل يكتب فى الوقائع المصرية الى سنة ١٨٣٤ ثم جال فى أنحاء أوربا . فكان سفيرا للعرب فى فرنسا وانجلترا ، ثم توجه الى تونس وحرر

فيها جريدة « الرائد التونسى » ثم سافر الى الاستانة وأظهر جريدة الجوائب سنة ١٨٦٠ وظلت نحو ثلاث وعشرين سنة . ثم أبطلت . إلى أن توفى فى سنة ١٨٨٧

إزالة الفوارق

ولما كانت هناك فوارق جغرافية وسياسية وطبيعية ودينية بين الأقطار العربية الشقيقة ، وكان من شأن هذه الفواصل أن تقف عقبة فى سبيل الوحدة ، وأن تعوق سيرها ، أو تبعد الهدف عن مرمى الأبصار ـ رأى أدباء الشام ومصر أن من واجبهم أن يعملوا هم أنفسهم على إزالة هذه الفوارق بقدر ما يستطيعون ، بايجاد الصلات وتعزيز الروابط ، وتحديد الأهداف . وعملوا على ما فيه مصلحة الأقطار العربية

فماذا عملوا ؟ وضعوا أسس الصداقة والتحالف ، ودساتير المحبة والتآلف .

وقام شعراء مصر يتمدحون بسوريا ولبنان ، ويشيدون بذكر العرب وفضلهم .

وقام شعراء الشام يشيدون بمجد العرب ، ويثيرون فى نفوسهم النعرة العربية والقومية العربية ، ليستعيدوا حياتهم القوية .

فكان فى مصر من هؤلاء الشعراء ابراهيم بك مرزوق المصرى الذى ولد بمصر سنة ١٨١٧ وتوفى بالخرطوم فى بداية عصر إسماعيل . وله ديوان اسمه « الدر البهى المنسوق بديوان الأديب ابراهيم بك مرزوق »

ومن بينهم الشيخ محمد عاقل المصرى وهو الذى قال مدحا فى بيروت وأدبائها لإيجاد التعارف بين القطرين :

قال :

لقد قصدوا بيروت دار أعزة ... لهم تنتمى الآلاء فى اللفظ والمعنى

نزيلهم قد شك فى أصل داره ... وصار يقين الأمر فى علمه ظنا

مدينة ظرف مابها غير فاضل ... بسيم وسيم قد حوى الحسن والحسنى

تشد له الألباب كل مطية ... بجربة الإسعاف فى كل ما عنا

وما منهم إلا وقد شب طوقه ... بنادى « نصيف اليازجى » وقد أقنى

مجيد المعانى وهو للقول حجة لأهل النهى — كم قد أجاد لنا فنا

* * *

ومن شعراء الشام الذين عملوا على خدمة القضية العربية الشيخ ابراهيم اليازجى وقد ولد فى بيروت سنة ١٨٤٧ وانتقل إلى مصر ، وأبرز فيها مجلة البيان . وأهاب بالعرب أن يتعاونوا وأن يحرصوا على عروبتهم :

قال فى سنة ١٨٦٨ :

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا مضت قدما فلم يضع الذمام

إلى أن قال :

وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ومن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما أيادى ليس تنكرها الشآم
وفى أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجام
وفوق الأندلوس لنا بنود لهامات النجوم بها اعتمام
وسل فى الغرب عن آثار فخر لها فى جبهة الزمن ارتسام
ولسنا القانعين بذكر هذا وليس لنا بعروته اعتصام
ولكنا سنجهد فى المعالى إلى أن يستقيم لنا قوام

ففى هذه القصيدة اعتزاز بالقومية العربية ، وبالتراث العربى القديم ، واستحثاث للعرب أن ينهضوا متعاونين .

* * *

وأراد أدباء الشام أن يتخذوا خطوة أخرى فى تقريب الأقطار الشقيقة من الناحية السياسية فمدحوا ولاة مصر . وتوددوا اليهم ، وتقربوا منهم ، فنالوا حظوة لديهم .

ومن هؤلاء : جرجس اسحاق طراد من أسرة وجيهة فى بيروت ولد سنة ١٨٥٤ وتوفى سنة ١٨٧٧. قال يمدح مصر والخديو اسماعيل باشا :

على اسماعيل سيدنا سلام تردده الأكابر والصغار
إذا ماغاب غاب العز معه كما إن عاد عاد لنا الفخار
لعزته تخر الأسد طوعا كما للموت - وللموت اضطرار
فما الاسكندرية فى حماه سوى روض يجلله اخضرار
ومصر الآن فى الأقطار خود تميس بحلة لاتستعار

* * *

ولا يفوتنى أن أنوه بفضل الكاتب الشاعر « اسكندر أبكاريوس » فى توثيق الروابط بين مصر وسوريا . فقد اشتغل بالتأليف فى بيروت ثم دخل مصر، ومدح أولى الأمر فيها . ثم توفى فى بيروت سنة ١٨٨٥ وله ترجمة ابراهيم باشا دعاها « المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية وهى مسجعة .

ومن شعره قوله يهنىء الخديو سعيد باشا لما زار بيروت سنة ١٨٥٩

شرفتنا فتزينت أقطارنا وزهت معالمها وطاب المورد
وتنورت بيروت حتى أصبحت من نور مجدك كوكبا يتوقد

* * *

وقال يمدح إبراهيم باشا ويذكر ماله من فضل وبسالة :

همام كان فى الدنيا فريداً وركنا فى المهمات العظام
ولا زالت وقائعه المواضى مخلدة على طول الدوام
وقائع لو رآها الطفل يوما لشاب لهولها قبل الفطام

* * *

وقال فى محمد توفيق باشا إذ كان ولى العهد :

يا من به آمالنا تتعلق ونفوسنا للقائه تتشوق

فيك الفضائل واللطائف والتقى والمكرمات وكل حسن يرمق
لم تجتمع فيك المحاسن إنما هنك المحاسن كلها تتفرق
تاهت بكم مصر السعيدة عزة وغدا جبين العصر فيكم يشرق
لازلت للقصاد أحسن كعبة وطريق رزق بابه لا يغلق

* * *

ومن شعراء الشام الذين عملوا على توثيق الروابط بين الأقطار العربية إلياس صالح وقد ولد فى اللاذقية سنة ١٨٣٩ ثم سافر الى مصر وقد مدح الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٥ بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

البشر فى قطر مصر فاح عاطره واليمن قد نورت فيه أزاهره
رب المكارم إسماعيل من شرفت به المعالى وزانتها مفاخره
هموم كل كئيب فهو فارجها وكسر كل كسير فهو جابره
ركابه السعد بالاقبال يخدمها وجيشه الله أنى سار ناصره

الوحدة الثقافية

إن الوحدة الثقافية أسبق فى التكوين من الوحدة الاقتصادية والوحدة العسكرية السياسية ، لأنها أساس تبنى عليه الارتباطات والاتصالات الاخرى ، ولأنها مقدمة طبيعية توحد بين العقول والآراء والاتجاهات والقلوب توحيدا يكون من أثره التآلف والتحالف فى النواحى السياسية والاقتصادية .

وقد كان للثقافة أنصار عملوا على نشرها بالوسائل المختلفة . ومن بينهم الفيلسوف الخطيب جمال الدين الافغانى زعيم النهضة والحرية ، وغارس بزور الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

فقد كان الشرق العربى رازحا تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، فجاءت رسالة جمال الدين مبعث يقظة الشرق وأساس حياته . فقد بث فى الأمم الشرقية روحا حية حفزت إرادتها ، وحركت همتها نحو الأهداف

الثقافية والعمرانية والسياسية فى عهد اشتد فيه بلاء الاستعمار ، وظلام التفرق .

جاهد فى سبيل الانسانية متنقلا بين أقطار المشرق وأقطار المغرب منذ سنة ١٨٥٦م الى أن توفى سنة ١٨٩٧ فانتقل فى هذه الفترة الى الهند والحجاز ومصر والاستانة ولندن وباريس وطهران ، لايخاف للمستعمرين بطشا ، ولايرهب للأوروبيين سلطانا .

انتظم فى سلك الجمعية الماسونية لاقامة دعائم الديموقراطية ، وحرك الرأى العام فى الشرق لفهم حقوقه المشروعة ، حتى يقف الشرقيون كافة متحدين جبهة واحدة فى وجه الأجنبى .

وقد استعان فى تكوين وحدة الشرق بالرابطة الدينية أيضا لأن الجامعة الدينية تربط الايرانيين والافغانيين مع سائر الأمم العربية ، وبالجملة قد عمل ـ رحمه الله ـ على الاتحاد الشرقى فى البلاد العربية وغير العربية .

وإذا لم يكن قد تم له تحقيق ماأراد فى أيام حياته فذلك لأن الأجانب كانوا يستغلون نفوذهم فى أطراف البلاد وأحشائها ، ليعرقلوا سير وحدتها ، ويقيموا أنواع العقبات فى وجه نهضتها . ومهما يكن من شىء فقد اتصل بالعقول والقلوب وترك من بعده خلفا يسير على هداه فى سبيل الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

عناصر ووسائل الوحدة الثقافية

كانت الصحافة العربية وسيلة لنشر الثقافة وضم الصفوف ، وتقارب وجهات النظر بين الأقطار العربية بعد انتشار الطباعة ، فقد وفد الى مصر فى القرن التاسع عشر جماعة من أدباء سوريا أنشئوا هنا فى بلادنا طائفة من الصحف العربية ، واتخذوها أداة للتعبير عن الحياة فى أقطار العرب كافة ، وللتنويه بالنواحى السياسية بقدر ما سمحت به حرية الرأى فى ذلك الحين . فكانت الصحف التى أسسها السوريون من أكبر عوامل النهضة العربية ، والثقافيه العامة للأقطار الشرقية

وقد اتفقت كلمة العرب على مناهضة الامتيازات الأجنبية منذ عصر اسماعيل باشا وعلى تدخل الأجانب الدخلاء فى شؤونهم ، لتسلم لهم بلادهم ، وليكونوا

سادة فى أقطارهم . فكان الأدباء فى مختلف الأقطار يعالجون هذه الناحية فى الصحف والمجلات بقوة وصرامة غير ناظرين إلى قطر دون قطر . وإنما كانوا يتوجهون بمقالاتهم وخطبهم وكتاباتهم إلى جميع الأقطار العربية : لأن شعورهم واحد فى كره الأجانب ، وفى حب إعلاء كلمة العرب. ومن هؤلاء . أديب اسحاق (ولد سنة ١٨٥٦ فى دمشق) وكان كاتبا وشاعرا وخطيبا . وقد أقام بالديار المصرية , وهاله أن يرى الامتيازات الأجنبية تطغى على حقوق العرب. فكتب فى هذه النواحى قاصدا تنبيه قومه بمصر والشام إلى الحقوق والواجبات ، ومبينا أضرار الامتيازات الأجنبية .

فكتب فى جريدة مصر سنة ١٨٧٨ فى شأن الافرنج وامتيازاتهم بعنوان « أمانى » يقول :

« من رآنا نذكر الافرنج تارة باللوم ، وطورا بالتظلم ، ونطلق اللسان فى بيان سوء معاملتهم لنا ، وأنهم فى بلادهم خراف ترعى الرفق وتألف العدل ، وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة . وفى بلادنا أسود تقضم لحم الحيوان ، وتأوى إلى غاب القسوة والزهو والامتياز ، يحسب أننا ممن ينكرون فضلهم، ويبخسونهم أشياءهم . ولا والله — لسنا من ذلك فى شىء ، فاننا نعترف لهم بالمزية والفضل ، ولا نجحد سبقهم فى مجال العلوم والفنون الخ . غير أن ذلك لا يمنعنا من مقت امتياز الافرنج عنا فى الحقوق المدنية والسياسية ، ولا يرد عنا عن التماس المساواة التى يسكنون اليها ، ويحرصون عليهـــا .

إنهم طلبوا الامتياز فى الحقوق ، والعفو عن الواجبات ، فأذعن لهم أولياء أمرنا: رهبة من منا وأتهم ، ورغبة فى موالاتهم . إلى أن قال :

وقد آن — والله — للأمة أن تطالب ، وللدولة أن تجيب ، بل آن للاوربيين أن يكفوا عن الطمع فى الاثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز . فقد أبطلت الحجة التى أثبتوا بها لأنفسهم ذلك الحق . . . الخ.

واستمر المرحوم أديب اسحاق بمجهوده الجبار يكتب، ويخطب فى ذم الافرنج

وتقبيح استعمارهم ، وإيقاظ الشرق للمطالبة بحقوقه . فما كتبه فى جريدة مصر القاهرة سنة ١٨٨٠ تحت عنوان أوربا والشرق :

« قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع . ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب .

فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية ، ولم نر منهم من هو صادق فى دعواه ، بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه . . الخ »

* * *

وكان يدعو دائما إلى وحدة العرب، ليستطيعوا الحد من عبث الدول الاوربية وذلك إذا ماتعاونوا وتراحموا ، واتحدوا جبهة واحدة فى وجه الأجنبى الأشعبى .

فمن ذلك أنه قد بعث برسالة على لسان جمعية مصر الفتاة إلى الأمير عبد القادر الجزائرى سنة ١٨٧٩ . (وكان عبد القادر أميرا بالجزائر وحارب الفرنسيين ثم هزم واضطر إلى الهجرة لبلاد الشام وظل بها يعمل على توحيد القلوب ، وإزالة أسباب الخلاف إلى أن مات هناك .)

وجاء فى هذه الرسالة مايأتى :

كتابنا أيد الله الأمير الأعز ، ونحن عصبة تذكر : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر :

رأينا ماألم بهذه الأقطار من الأضرار ، ناشئة عن تخالف القلوب، وتنافر الأفكار حتى صار الود مداجاة والحب عدوانا . فقلنا ياقوم : لاتنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

ورأينا بوادر البلاء ، وطلائع الشقاء ، فخفنا المصاب الأعظم ينقلب به الخير إلى الضير ، والمغنم الى المغرم . ويزول بهاء الامة ، ثم تغضب الأرض التى سقاها السلف الكرام بالدم ، فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم . والسلم أسلم .

ورأينا فقيرنا يتعثر بأذيال فاقته ، وعظيمنا لا يأمن على راحته أو على مافى راحته . ومثل ذلك سائر إخوان الوطن الذى ولدنا فيه أو نزلنا بساحته .

فنزعت أنفسنا إلى إعانتهم — ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

ورأينا أنوار فضل الامير توقظ الراقد ، وتنبه الغافل من هاته الأمة فتكشف عنها كل ملمة . فعلمنا أن لابد من التماس مساعدته فى هذه المهمة ، فرفعنا إليه الصحيفة التى هى لسان حالنا ، لتنوب لديه عن لسان مقالنا ؛ أمل الحصول على القبول : شأن الأمير فى معاملة من أمه ورجاه الخ .

* * *

الجمعيات والمؤتمرات

فى القرن التاسع عشر

كما أن الوحدة العربية فى الوقت الحاضر تتطلب اجتماع الصفوة من رجال العرب العبقريين فى الاقطار الشقيقة ، ليتبادلوا الآراء ويمحصوها ، وليجعلوا أمرهم شورى بينهم ، وليصلوا إلى نتائج لها أثرها فى تحرير الاقطار العربية من سلطان الدول الغربية — كذلك يبين لنا التاريخ أن مثل هذا قد ظهر بقوة وحماس فى القرن التاسع عشر .

وأول من دعا إلى ذلك الخديو اسماعيل باشا ، فأنشئت فى عهده الجمعيات المختلفة. مثل الجمعية العلمية الشرقية ، وأعضاؤها مختارون من مختلف الأقطار العربية. فكانت هذه الجمعية باعثة على ظهور الجمعيات الاخرى المتعددة التى عملت لانهاض العرب ثقافيا وسياسيا .

صار فى كل قطر جمعيات تعمل من أجل النهضة القومية تمهيداً للنهضة العربية العامة . فقد عمل كل قطر عربى على تكوين نفسه تكوينا قويا ذاتيا ، ثم على الانضمام إلى سائر الأقطار العربية التى ينضوى تحت لوائها العام .

وترتب على هذا : انتشار الحرية الشخصية . وتأييد حقوق الأفراد ، والنزعة

إلى التضامن والتعاون ، ومحاكاة الأمم الحرة المتمدينة فى ثقافاتها ، ومناوأة الأجانب ، والوقوف فى سبيل جشعهم واستعمارهم .

وأنقل هنا جانبا من مناظرة دارت فى إحدى هذه الجمعيات وهى جمعية زهرة الآداب التى تأسست فى بيروت سنة ١٨٧٣ بترخيص من الحكومة العثمانية . ومن هذه المناظرة بل ومن عنوانها تستنبطون مقدار ما كان يشعر به العرب إزاء الاجانب المستعمرين . تناولت المناظرة « نابليون الأول » فى موضوع :

« هل كان خيره أكثر من شره ؟

فقال أحد المناظرين وهو المرحوم أديب بك إسحاق فى هذا الموضوع ما يأتى :

لقد سبق لسانى الخاطر ، وخاطرى الفكر فى الرضا بهاته المباحثه : تذكرنى بالرجل الذى مارأيت فيه كبيراً غير ذنبه ، ولاعظيما غير استبداده ، ولا مميزاً غير شره وقسوته . .

أى اجترام أعظم مما سأبسط ، وأى ارتكاب أفظع مما سأروى ، وأى افتئات أضر مما سأبين فى أعمال الآفة الحاصدة للأرواح والبلية النازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان . وصفت نابليون الاول . وهذا الوصف لايصل إلى معناه .

ولست فى موقف الخطيب لأمثل سيئات هذا الرجل ، ومنكرات أعماله ، ولست فى مقام المؤرخ لأجىء بتفصيل أحواله ، ومحصل أقواله . وإنما أنا مناظر فى موضوعه - التزمت أن أنفى عنه مالم يكن فيه ألبتة من الخير ، وأن أثبت له ما كان راسخا فيه من الشر ، وما التزمت إلا بيان البين ، وتحصيل الحاصل .

فقد كان ممتنعا على فطرة هذا الرجل أن يصدر منه شىء من الخير بالارادة والاختيار . فان نتج من أفعاله شىء مفيد ، فوجه النفع فيه غير مقصود . وإنما حصل عنه كما ينفع القاتل ورثة المقتول ، والكاسر معمل الزجاج ، والهادم عطل

الفعلة : لايقصدون النفع فيما يعملون ، وإنما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الأعمال وقد يكون فى بعض الشر خير من بعض الوجوه .

وانى ناظر فيه من ثلاثة وجوه: الأول حالته الادارية ، الثانى حالته السياسية ، والثالث حالته الذاتية الخصوصية . مبينا ما ألحق بالناس عموما ، وبالبلاد التى ولبها خصوصا من جسيم الأضرار فى كل حالة من تلك الحالات ، معينا فى الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق ، وسفالة الفطرة ، وخسة النفس ، ليعلم أنه لايعقل صدور شىء من الخير المقصود ممن تجمعت فيه تلك النقائص :

لاترتج الاصلاح من فاسد فالشهد لايجنى من الحنظل

* * *

الشبه بين الماضى والحاضر

إننا نعرف أن من مبادىء الوحدة العربية فى هذه الايام نشر الثقافة العربية وتوحيدها وتعميمها فى الأقطار الشقيقة بقدر ما تيسر ، لتتربى فى هذه الأقطار ناشئة تتقارب فى ثقافتها ، فتهدف إلى غاية واحدة وتسعى لها سعيها بآمال متقاربة .

وقد عثرنا على بذور هذه الدعوة فى أواخر القرن التاسع عشر إذ أثار بعض الأدباء موضوعات تتصل بحق التعلم ووجوبه على الآباء لولدهم من الذكور والاناث من السادسة الى الثالثة عشرة من سنهم ، بالمدارس الابتدائية والانتصافية سواء أكانت هذه المدارس أميرية عمومية أم حرة خصوصية .

وقد كان القائمون بالدعوة للتعليم الالزامى وتعميمه جماعة من أدباء سوريا وعلمائها ويقصدون أن يتحقق آمالهم فى توحيد الثقافة ونشر الحقوق وقيام كل أمة بواجبها ازاء الافراد ، وقيام الافراد بواجبهم نحو أمتهم فلم تكن دعوتهم مقصورة على مصر وحدها ، بل شملت معها البلاد العربية الأخرى التى تريد أن تنهض . وكانوا أحرص

الناس على الوحدة، لأن الشام وطنهم كانت ترزح تحت سلطان العثمانيين المستبدين. ووجدوا فى مصر مركزاً للقوة لأنها كانت مستقلة.

وقد قامت مشكلة المجانية فى التعليم عام ١٨٨١ فقام بعض الكتاب يؤيدون الرأى القائل بالمجانية المطلقة لأبناء الفقراء وأبناء الأغنياء على السواء وذلك بسبب انتشار روح الحرية، والعمل على محو الجهل والأمية.

وقام فريق آخر يقرر أن المجانية يجب أن تكون مقيدة بالعجز والفقر، لا مطلقة حتى يؤخذ المال من الأغنياء لهؤلاء العجزة الفقراء.

وقامت جريدة البشير بمصر تعارض فى أمر الالزام، وأمر المجانية وقالت: إن التعليم من وجه الالزام ظلم وكفر وفحش وجهالة، لا يخق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الأمة، ولا فائدة فيه لأحد من الناس بل هو البلاء العميم، لأن فيه إكراها يذهب بحرية الآباء، وينقص من عدد العارفين، ويزيد فى عدد الجهلاء.

ثم اعترضت هذه الصحيفة على مجانية التعليم. وانحصر اعتراضها فى أربعة أمور:

أولا: إن المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة، فهى ضريبة فادحة تزيد تكاليف الأمة أثقالا.

ثانياً: إن المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيراً. ولم يأخذ بها إلا القليل من الدول.

ثالثاً: إن المجانية من آثار الاباحية، لأنها تتعلق بالاشتراك فى أموال الدولة.

رابعاً: إن المجانية إنما وضعت فى الأصل من أجل الفقير فقط ومن أجل إعانته على التعليم. فاذا أطلقت من القيود صارت لإعانة الغنى. وفى هذا حيف على الفقير لأنه لم يأخذ حقه من الغنى.

وما أشبه الليلة بالبارحة نجد مثل هذا البحث قائما فى الزمن الحاضر، زمن الحرية والديمقراطية والانسانية. وله مؤيدون، وله معارضون.

والسبب فى طلب نشر التعليم وتعميمه أن يعرف كل مواطن حقوقه وواجباته

نحو نفسه ونحو غيره فيعمل لمصلحة وطنه واستقلاله ، والبعد عن سيطرة الأجنبي

وبالجملة فقد ظلت الروح التعاونية تنتقل من السلف إلى الخلف وتساعد على نماء الوحدة العربية . وإدخالها فى طور الفعل . وقام بعض الكتاب فى هذا العصر يجهرون بالدعوة إلى الوحدة من أمثال الأمير شكيب أرسلان فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩٣٧ .

كما أن بعض الشعراء من سوريا ولبنان قد تمدحوا بالأقطار العربية ، ودعوا إلى التناصر ، وساعدهم الكتاب والأدباء ومحررو الصحف والمجلات على هذا العمل الجليل ، وشد أزرهم أولو الأمر . كما كانت الحال فى القرن التاسع عشر .

وأذكر منهم على سبيل المثال شاعر العراق السيد معروف الرصافى . فقد دعا سوريا الى الوحدة العربية بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

أما آن أن تنسى حقود وأضغان ... فيبنى على أس المؤاخاة بنيان
أما آن أن يرمى التخاذل جانباً ... فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة ... وان التعادى فى الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا ... فتعمر بلدان وتأمن قطان
إذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا أن تعدد أديان

وأذكر على سبيل المثال أيضا الشاعر إيليا أبو ماضى شاعر لبنان وقد وفد الى مصر أيام المرحوم شوقى ثم غادرها الى المهجر بأمريكا يقول فى الحنين الى الوطن: مصر ولبنان معاً :

وطنان أشوق ما أكون اليهما ... مصر التى أحببتها وبلادى
ومواطن الأرواح يعظم شأنها ... فى النفس فوق مواطن الأجساد
حرصى على حب الكنانة دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد
بلد الجمال خفيه وجليه ... والفن من مستطرف وتلاد
تحنو على الغرباء حتى انهم ... لا يشعرون بفرقة وبعاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد ... الا بمصر نضارة الآباد

وبعد : أو ليست الأهداف التى ترمى إليها العرب فى غرب آسيا وشمالى أفريقية فى العصر الحاضر هى بعينها الأهداف التى رمى اليها العرب منذ بداية القرن التاسع عشر :

فظهرت الثمرة ونضجت وسميت باسم الجامعة العربية فى القرن العشرين فبارك الله فيها . والسلام عليكم .

محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش العام بوزارة المعارف

قصـــــــة

عضو بعثة

للدكتور ابراهيم أنيس

وجد « خليل » نفسه وحيداً فى فندقه الصغير وقد بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه لأنه قضى شهراً كاملا يبحث عن أسرة يسكن معها .

حين كان « خليل » يعد نفسه للرحيل إلى انجلترا لم يترك أحداً من أصدقائه أو معارفه ممن كانوا هناك إلا سأله عن خير نصيحة يمكن أن يقدمها إليه . وقد أجمع الكل على أنه من الخير لكل مصرى يرحل إلى انجلترا أن يقيم مع أسرة ولكنهم اختلفوا فى أسباب نصيحتهم هذه . فمنهم من قال إن خير وسيلة لاتقان اللغة الانجليزية هى السكنى مع أسرة . واخر بدأ يحدث « قليلا » عن أن المرء فى غربته بحاجة إلى الحنان والعطف ممن حوله ولن يجد هذا إلا فى الأسرة . . وثالث أكد لخليل أن الأسرة تعين على الأتصال والاختلاط ومقابلة الفتيات الحسان .

وقد دهش « خليل » لأنه راهم جميعاً ينصحون بأمر واحد ويختلفون فى علة هذه النصيحة .

ولسنا ندرى أى هذه الأسباب صادف هوى فى نفس « خليل » ولكننا نعلم أنه منذ وصوله أخذ يجد البحث عن أسرة . ثم أعياه السؤال عما ينشده وكاد ييأس لولا أن رأى بريقا من الأمل فيما أخبرته خادم الفندق حين أسر اليها برغبته هذه فقد نصحته بنشر إعلان فى أحد للصحف المحلية . ثم نشر الاعلان وكانت صيغته

« طالب مصرى يعمل فى حقول التجارب الزراعية « بأسلاو » يبحث عن أسرة كريمة يعيش معها على أن يكون الضيف الوحيد »

و « أسلاو » هذه بلدة صغيرة قرب لندن فيه حقول التجارب الزراعية ، لجامعة لندن العظيمة . وقد أرسل « خليل » هناك لأنه كان عضو بعثة وزارة الزراعة المصرية .

وتوقع « خليل » فى اليوم التالى لنشر إعلانه أن تنهال عليه الرسائل ردا على هذا الاعلان . ولكن خاب ظنه حين جاءته رسالة واحدة فى بريد الظهر من مسز « جراهام » .

مسز « جراهام » سيدة مسنة تعيش مع زوجها أحد أصحاب الأعمال فى « اسلاو » منذ أربعين عاما ، وقد رزقت فى كل حياتها الزوجية الطويلة إبنا واحداً شاءت الأقدار أن يرحل عنها إلى بلاد الهند ليعمل فى إحدى الشركات الكبرى هناك حزنت مسز « جراهام » على فراق ولدها الوحيد حزناً عميقاً ولكنها كمعظم أمهات الانجليز لم تشأ أن تقف فى سبيل مستقبله فتركته يرحل على مضض منها ليكون حياته كما يرغب . وقد لبثت تكتب لولدها فى كل اسبوع رسالة تحدثه فيها عما يدور فى محيطها الضيق مما جعل رسائلها اخر الامر تكرر أخباراً متشابهة . وأحس ولدها بنغمة الوحشة التى كانت تحيط بأمه فكتب إليها يرجوها ويلح فى الرجاء أن تبحث كما هى عادة كثير من الانجليزيات ذوات اليسار — عن سيدة تعيش معها لا كخادم بل كعضو فى الأسرة تأكل معهم وتجلس معهم وتشاركهم فى القيام بشئون الدار .

وأخيراً أذعنت مسز « جراهام » لنصح ولدها ونشرت إعلاناً أيضاً فى الصحيفة المحلية فى نفس اليوم الذى نشر فيه « خليل » وشاء حسن حظه أن ينشر إعلانه بجوار إعلانها .

وفى المساء جلست مسز « جراهام » بجوار المدفأة وبيدها الصحيفة تقرأ إعلانها فلفت نظرها إعلان « خليل » فقرأته أيضاً .

وهنا مرت لحظات غابت فيها عن صوابها وأخذت تفكر فى حال ولدها ببلاد

الهند . وصور لها خيالها كل الأمهات صوراً مظلمة عن حياته هناك وتخيلت أنه ربما لا يجد أيضاً أسرة يسكن معها ويطمئن اليها ذرفت عبرات حاره وفجأة قامت تكتب لخليل وتطلب اليه أن يزورها فى وقت حددته له لا لانها صممت على أن تسكنه معها ولكن دفعها حب الاستطلاع أن تسمع منه قصته وما كان من شأنه .

ثم رأت مسز « جراهام » نفسها فى اليوم التالى لاول مرة فى حياتها أمام شاب أجنبى يتحدث اليها بلغة مفهومة وان تخللها كثير من الاخطاء. ورقت هذه السيدة الكريمة لحال « خليل » ووعدته بعد حديث طويل بالتفكير فى الامر

وفى مساء ذلك اليوم دار حوار طويل بين مسز « جراهام » وزوجها هو محاورها عن طريق العقل وهى تجادله عن طريق القلب وأخيراً قرر أى الزوجين على سكنى « خليل » معهما .

عاش «خليل» مع هذه الاسرة ثلاث سنوات وكان كلما مر به الزمن معهم ازدادوا حبا له وشغفا به وزاد هو أيضاً حباً لهم وشغفاً بهم ، ورأى « خليل » فى مسز « جراهام » حنان أمه وعطفها ، ورأت هى ايضاً فيه شباب ولدها وفتوته .

وكم جلس «خليل» يحدثها هى وزوجها عن مصر وصفاء سمائها واشراق شمسها وعذوبة ماء نيلها وعما فيها من رخاء وعن عادات قومها واثارها . مما جعلها تتمنى لو عاشت ما بقى لها من العمر فى بلاد « خليل »

وهى أيضا جعلت من نفسها معلمة له تصلح من اخطائه اللغوية وتحدثه عن عادات الانجليز وتاريخهم فجعلته بعد زمن قليل يحس كأنما كانت انجلترا وطنا ثانياً له .

ودهش مستر «جراهام » حين رأى زوجته التى تعودت أن تقضى معظم الايام فى فراشها يعود اليها نشاطها ولا ترى الا باسمة فكأنما قد أعادت حياة «خليل» معهما ما فقدته لفراق ولدها من صحة وقوة . وقد كانت تأبى الا أن ترتب لخليل سريره بيديها وأن تدقه بقربتين صغيرتين من الماء الساخن .

وتعود أهالى « أسلاو » أن يروا ذلك الشاب الاسمر الطويل القامة المجعد الشعر

ذا الاسنان اللامعه الذى أشرب وجهه بحمرة تنم عن صحة وعافية وهو يمر بهم فى طرقات المدنية مثالا للرجولة والفتوة فكان دائما موضع اعجابهم ولكنهم كانوا لايتحدثون اليه خجلا منهم وحياء فيكتفون بالابتسام . حتى كان يوم أصبح فيه « خليل » حديث الناس فى هذا البلد الصغير يذكرونه وكلهم ثناء عليه واعجاب بشهامته ومروءته وذلك ان المارين فى الشارع الهام بالمدينة شاهدوا فتاة صغيرة تعدو ووراءها سيارة تكاد تصدمها وفقد السائق توازنه فلم يستطع وقف سيارته وصاح الرجال وصرخ النساء وفجأة راى الناس « خليلا » ينطلق انطلاق السهم غير مبال بالاخطار ثم يخطف الفتاة عائدا بهايحملها بين ذراعيه القويتين لم يمسسها ضر او اذى .

ومنذ ذلك الحادث بدأ أهالى « أسلاو » يتحدثون الى « خليل » كلما صادفوه أو يحيونه كلما قابلوه . وذاع ذكره بينهم فلقبوه بالمصرى النبيل . فاذا كانت معه مسز « جراهام » ذات يوم سارت تعتمد على ذراعه وكانها زهو وفخر بضيفها المصرى أو قل بصديق الاسرة الشاب الذى أصبح يحل منها مكان الابن البار

ومضت الايام وأدى «خليل» امتحانه النهائى بنجاح وكان عليه ان يعود الى مصر فعز هذا الخاطر على مسز «جراهام» وكأنما قد افاقت هى وزوجها من حلم لذيذ استمر ثلاثة أعوام كانت لما تخللها من سرور وسعادة كثلاثة ايام . واذا بخليل يعد نفسه للرحيل فكانت صدمة أخرى لمسز « جراهام » لايعادلها الا الصدمة الاولى لفراق ولدها ولكن ماحيلتها وقد انقضى الاجل المحدد له فى البعثة وقد ادى المهمة التى ارسل من اجلها

وعلى مضض منهم جميعا قابلوا الحقيقة المرة بهدوء وصمت . وفى ليلة الرحيل دعت مسز «جراهام» الاصدقاء والمحبين فى حفل عائلى صغير لتوديع «خليل»

وكان ان اجتمع المدعوون وبدءوا يتسامرون ويلهون ومسز « جراهام » عن كل هذا لاهية ذاهلة شاردة الفكر تبدا الحديث فى موضوع ولا تكاد تنتهى منه حتى تشرع فى غيره

وطلب الحاضرون منها اخر الامر ان تتكلم فأبت فالحوا فى السؤال فوقفت بين تصفيقهم وتهليلهم وبدات القول والدموع تترقرق فى عينيها فاقلت من الكلام ولكنها احسنت التعبير عن قليل مما تكنه لخليل ثم كان اخر قولها ان قالت « مازلت اترنم بقول شاعرنا « كبلنج » الشرق شرق والغرب غرب ومحال ان يلتقى التوامان حتى قابلت « خليلا » فاصبحت اقول الشرق غرب والغرب شرق وعلى التوامين ان يلتقيا

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

من حكايات الاطفال : معربة

الامير نور الدين (١)

للاستاذ عبد الرزاق حمبده

تفاح الملك :

كان لملك من الملوك ثلاثة أولاد . وكان له قصر جميل فخم تتصل به حديقة فيها خير أنواع الفواكه . وكان أعجب ما فى الحديقة شجرة تفاح تثمر كل عام ثلاث تفاحات ذهبية ، ولكن الملك لم يذق طعم هذا التفاح أبدا ، لاهو ولا واحد من أولاده ، إذ أن غولا مخيفا كان يأتى إلى هذه الشجرة كلما نضجت تفاحاتها الثلاث فيأكلها .

وتساءل الامراء الثلاثة ذات يوم : كيف لا يستطيعون أن يذوقوا هذا التفاح الذهبى البديع ، فأخبرهم أبوهم أن الغول يأتى الى الشجرة عندما ينضج تفاحها ، فيذهب به فى ثلاث ليال متوالية ، كل تفاحة فى ليلة . فقرروا أن يحرسوا هذه الشجرة ، وأن يمنعوا الغول كى يستطيعوا أن يعرفوا لها طعما ولو مرة ، ورضى أبوهم بما قرروه ، وشجعهم عليه .

---

(١) قصة الامير نور الدين من القصص الخيالية التى تعرف عند الانجليز باسم FAIRY TALES أشخاصها يشبهون بنى آدم فى التركيب . لكنهم أصغر حجما ، ولهم أفعاله عجيبة وملابس زاهية جميلة غاليا .

وهذا نوع يشوق الاطفال وقد يستمعون الية ساعة بعد ساعة فلا يملون سماعه . وله أثر محمود فى تربية الخيال .

حراسة التفاح

وفى الليلة الاولى ذهب الامير الاكبر واسمه محمود ، الى الحديقة ليحرس التفاح ويمنع الغول . وبات ساهراً حتى دقت ساعة القصر فى منتصف الليل ، وعندئذ سمع الامير محمود صيحة مزعجة مرعبة ، فطار فؤاده من هولها ، وكاد يموت عند سماعها ، ففر يطلب النجاة ، وذهب الغول بتفاحة من التفاحات الثلاث .

وفى الليلة الثانية ذهب الامير الاوسط واسمه شهاب ، فلم يكن حظه خيرا من أخيه الامير محمود ، بل فقد رشده عند سماع الصيحة التى أرسلها الغول عند منتصف الليل . وفر من الموت الذى تخيله عند سماع الصيحة وذهب الغول بالتفاحة الثانية .

الامير نور الدين يطعنه الغول

وفى الليلة الثالثة ، خرج الامير الاصغر — واسمه نور الدين — الى الحديقة فى أول الليل وبات ساهرا تحت شجرة التفاح يترقب مجىء الغول . فلما انتصف الليل جاء الغول صائحا بصوت يملأ القلوب رعبا وفزعا ولكن الامير لم يخف ولم يفزع . بل وقف على قدميه بقلب جرىء ونفس هادئة ، ونظر الى الغول . ثم صوب رمحه اليه ورماه به ، فاخترق جلده ، ونفذت الطعنة الى جوفه ، وسقط على الارض مضرجا بدمه . ثم قام مسرعا ، وولى هاربا ، يصيح ويئن أنيناً مخيفا . وعاد الامير الى قصر أبيه مسرورا بما فعل ، راضياً كل الرضا عن نفسه لانه نجح فى منع الغول . ونام فى غرفته حتى مشرق الشمس .

جاءه أخواه محمود وشهاب فى الصباح وسألاه عما فعل ، فأخبرهما أنه ضرب الغول برمحه ضربة كادت تقتله ، واستطاع أن يطرده قبل أن يأخذ التفاحة الثالثة الباقية . فضحكا استهزاء بما قال . فذهب بهما إلى الحديقة ، وساروا جميعا حتى وصلوا إلى شجرة التفاح ، فوجدوا التفاحة الثالثة باقية ، ووجدوا آثار الدم الذى سال من جسم الغول ، وساروا وراء الدم لعلهم يهتدون إلى الكهف الذى يختفى فيه الغول ليقتلوه . فانقطعت آثار الدم عند حافة بئر عميقة مظلمة . ففكروا فى النزول :

قال الأمير الأكبر ، محمود ، لاخويه لابد من النزول فى هذه البئر . وسأنزل أنا للبحث عن الغول . فاربطا حبلا حول وسطى . فاذا ناديت من داخل البئر : البرد البرد ، فاتركا الحبل وإذا ناديت : الحر . الحر ، فاجذبا الحبل وأخرجانى فى الحال . ثم ربط حبلا حول وسطه ونزل فى البئر ، ولكنه لم يكد يصل الى منتصف المسافة بين حافتها وقاعها حتى صاح بأعلى صوته : الحر . الحر . فشد أخواه الحبل وأخرجاه .

وتقدم الأمير الأوسط شهاب ، فربط الحبل حول وسطه ونزل . ولكنه لم يكد يتجاوز منتصف البئر حتى صاح . الحر . الحر . فشده أخواه إلى ظاهر الأرض

فى أرض القصر المسحور .

أما الأمير الأصغر نور الدين . فقال لأخويه . إذا ناديت قائلا : البرد . البرد فاجذبا الحبل . ثم ربط الحبل وسطه ونزل ثم نزل . واستمر ينزل حتى وصل الى القاع : فحل الحبل ، ونظر حوله فرأى شيئا عجبا . رأى إقليما ساحر المناظر . مملوءا بالغابات والرياض والجداول . ينيره ضوء زاهر جميل ، فدهش مما رأى . وعجب من جماله عجبا شديدا . وسار فى وديان ذلك الإقليم وهضابه زمنا حتى بلغ قصرا فحما ، ووجده مفتح الأبواب ، فدخله . ومشى فيه متنقلا من حجرة إلى حجرة . وكل حجرة تزيد على التى قبلها فى جمالها وبهاء منظرها وحسن شكلها حتى أتى حجرة وجد فيها ثلاث فتيات لم تقع عينه من قبل على مثلهن فى النضارة والجمال . فلما رأينه عجبن من جراءته وسالته إحداهن :

أيها السيد الشاب . ما الذى جاء بك إلى هنا ! فأجابها .

إننى أبحث عن الغول الذى يعيش حول هـذا المكان ، فأخبرته أنه هو الذى يحبسهن فى ذلك القصر فكيف لا يخافه ويرهب سطوته ! فأجاب الأمير نور الدين أنه لايخاف شيئا وأنه سيلاقى الغول حتما ليقتله ويستريح الناس من شره

عجب الأميرات عندما سمعنه كل العجب وأردن تقديم المعونة له كى يقتل الغول ، فقلن له .

اسمع أيها الفتى الجميل : إن الغول ينام فى الغرفة التى وراء هذه . فاذهب اليه

فاذا وجدت عينيه مغمضتين فاعلم أنه مستيقظ . وأنه سيقضى عليك ، وإذا كانتا مفتوحتين فهو نائم نوما عميقا فاضربه برمحك ضربة واحدة . واعلم أنها تقتله ، واحذر أن تضربه ضربة أخرى فانك إن فعلت عادت اليه الحياة وقتلك

بعد هذا الحديث ذهب الامير نور الدين إلى غرفة الغول فوجده مستلقيا مفتح العينين فعلم أنه نائم ، فضربه برمحه ضربة مميتة . فصاح الغول صيحا مفزعا . وقال له :ارحمنى أيها الفتى واضربنى ضربة أخرى تذهب بما أقاسيه من الألم فأبى الأمير أن يعيدها .ومات الغول

عاد الأمير إلى حجرة الفتيات الجميلات يبشرهن بقتل الغول ونجاتهن من الأسر . ويعرض عليه الزواج منه ومن أخويه الأميرين محمود وشهاب . كل واحد واحدة .. فرضين بخطبته وقدم لهن الخواتم الثلاث . وغادر الجميع القصر إلى قاع البئر التى نزل منها فربط الأمير الحبل حول وسط الأميرة الكبرى ، ونادى بصوت مرتفع . البرد ! فشد أخواه هذه الأميرة إلى ظهر الأرض . ثم صعدت الأميرة الوسطى كما صعدت الكبرى .

عروس الأمير نور الدين

أما الأميرة الثالثة الصغرى . فقد فتنت الأمير وأسرت قلبه ، كما فتنها وشغفها حبا ، فلما جاء دورها قبلها وقال لها : إنك صاعدة إلى ظاهر الأرض . فلا تنسى أنك عروس وفاتنى ، فأجابته : ما أعظم سرورى بذلك ! فانى أحبك حبا قويا ، ولكننى أخشى أن أصعد قبلك فتطمع أخواك ، فماذا أنت صانع إذا بقيت هنا تحت الأرض ؟ وماذا يصير اليه أمرك ؟ خذ هذه البندقات الثلاث فان فى واحدة منها ثوبا بديع الطراز نقشت عليه السموات ونجومها الزهر ، وفى الثانية ثوبا عليه رسم الأرض وأزهارها الناضرة وفى الثالثة ثوبا عليه رسم البحار وما فيها من أسماك مختلفة الأشكال والألوان . فاحفظ هذه البندقات الثلاث فقد تنفعك يوما لم تكد هذه الأميرة الصغيرة تصعد إلى ظهر الأرض حتى فتن بها الأميران

محمود وشهاب وحسدا أخاهما عليها . وحاول كل منهما أن يأخذها لنفسه : ثم ذهبا بالأميرات الثلاث وتركا أخاهما عند القاع

وقف الامير نور الدين ينادى : البرد . البرد وطال به الوقوف والنداء ثم أدرك أن أخويه قد ذهبا . ولم يبق عند حافة البئر أحد يعينه على الصعود فترك مكانه حزيناً حيران . ومشى فى هذه الاقاليم التى جاء منها لعله يجد مساعداً فرأى بستانياً عجوزاً يعزق حوضاً من أحواض الازهار فحياه وقال له : أيها الانسان الكريم إنى ضللت طريقى فى بلادك وأود أن أصعد إلى ظاهر الارض . فهل عندك حيلة تساعدنى بها على العودة من حيث جئت ؟

فرد البستانى العجوز تحيته بأحسن منها وقال له ، اذهب أيها الامير فى طريقك مخترقا تلك المزارع حتى تصل إلى نهايتها وستجد هناك خروفين . أحدهما أبيض كالثلج ؛ والآخر أسود كانه قطعة من الليل . فأغمض عينيك واجر وراءهما . فاذا قبضت على الخروف الأبيض فسيذهب بك الى ظهر الأرض وإذا لم يساعدك الحظ وقبضت على الخروف الأسود نزل بك إلى إقليم آخر أبعد عن سطح الأرض من هذا الاقليم .

الى أرض الوحشة والذعر

شكر الامير للبستانى ، واخترق المزارع حتى وجد الخروفين فأغمض عينيه وجرى وراءهما فخانه الحظ وقبض على الخروف الأسود ، فأحس أنه يغوص فى الأرض ، فلما فتح عينيه وجد نفسه واقفا فى واد يانع بجانب عين ماء يسيل ماؤها فيمس قدميه مسا رقيقا . ووجد عندها فتاة تبكى : فسألها ماشأنها وما هى ؟ فأجابته والاسى يملأ نفسها :

أيها الغريب النبيل : يجب أن ترثى لحالى ! ان هذه البلاد قد ابتليت بوحش مخيف ، له سبعة رءوس ، يعيش على لحومنا ودمائنا وهو يحمى هذه العين التى لانجد غيرها نشرب منه . فلا يأذن لنا أن نذوق ماءها إلا اذا قدمنا له كل يوم فتاة منا يأكلها ، وانى القربان الذى يقدم اليه اليوم ما أشد بؤسى وحزنى ! إننى واقفة

هنا أنتظر قدومه . إنه سيأتى بعد قليل ، ثم خنقتها العبرات واستولى عليها الذهول ثم ثابت إلى رشدها . فقالت : ان أبى ملك هذه البلاد وليس له غيرى من البنين والبنات ، إنه فى قصره الآن حزين مقطع القلب . انه يظننى الآن فى جوف الوحش

فأجاب الأمير نور الدين : لاتخافى ولا تحزنى أيتها الاميرة إن لى قلبا شجاعا وقد أستطيع أن أنجيكم من هذا الوحش وأريحكم من شره

ولم يكد يتم حديثه إلى الاميرة حتى سمع من وراء الجبل هزيما وعزيفا ورأى الوحش قادما قد رفع رءوسه السبع كى يبتلع الفتاة فلما بصر بالامير نور الدين واقفا معها تمهل فى مشيته ، فعاجله الامير بضربة قاتلة من رمحه ، أرسلها الى قلبه ، فتحول جسمه سيلا من اللهب ، وصاح صيحة تخلع القلوب ، ثم خر صريعا

أخرج الامير خنجره من قرابه ، وقطع ألسنة الوحش السبعة ، ووضعها فى جيبه لتشهد له على ما فعل اذا دعت الحالة الى هذه الشهادة ، ثم أوى الى شجرة قريبة واستلقى تحتها ثم نام

ولكنه صحا بعد قليل اذ سمع فحيح ثعبان قادم من بعد . جاء يقصد وكر نسر فى أعلى الشجرة ، ويريد ابتلاع مافيه من فراخ النسر فنهض الأمير ، وأرسل الى الثعبان طعنة من رمحه مزقته . كما قضت على الوحش من قبله ، ثم عاد الى نومه

جزاء المعروف

عاد النسر الى أفراخه بعد حين فلما بصر بالامير نائما تحت الشجرة ظن به شراً فحوم فى السماء ثم هوى نحوه يريد أن يمزق أحشاءه بمخالبه ومنقاره فصاحت به أفراخه ألا يصيبه بأذى ، وأن يتركه نائما مستريحا . فعجب النسر من أفراخه وسألها عن السبب فأخبرته أنها مدينة بحياتها لهذا الشاب : اذ أنه قتل ثعبانا كان يريد أكلها فلما سمع ملك الطيور مقالة أفراخه نشر جناحيه حول الامير نور الدين وأظله حتى استيقظ ثم قال له

أيها الشاب النبيل : لقد نجيت أفراخى

وإنى لا أدرى كيف أشكر لك حسن صنيعك .

فرد الأمير : إنى لا أستحق شكراً كثيراً يامالك الطيور ، وإن أى إنسان يفعل مافعلت فى مثل هذا الموقف .

فأجابه النسر : إنك بطل ياسيدى وإنك طيب القلب . فتكلم ، وأخبرنى كيف أجزى معروفك .

فقال الأمير : إذا لم يكن بد من أن تجزينى فتفضل واحملنى على ظهرك إلى بلادى فوق سطح الأرض .

فأطرق ملك الطيور ثم رفع رأسه قائلا :

آسف أشد الأسف . وأود لو أستطيع ! انها رحلة طويلة جدا . فاذا حاولتها مت جوعا وعطشا قبل أن أصل .

فسأله الأمير : أتستطيع أن نرحل الرحلة اذا تزودنا للطريق بالماء والطعام ؟

فأجابه النسر : نعم نستطيع ، ولكنى احتاج الى أربعين خروفا وأربعين زجاجة مملوءة ماء . فأين تجد كل هذا ؟ لايستطيع أحد أن يمدك بما تطلب الا الملك

فكر الأمير أن له يدا عند الملك . فقد نجى ابنته الوحيدة من الوحش ، وان يبخل عليه الملك بأى شىء يريده من أجل ذلك فطلب من النسر أن ينتظر بعد أن أخبره بقصته فوعده النسر أن ينتظره حتى يعود .

ذهب الامير نور الدين الى حاضرة الملك وسأل عن القصر فأرشده الناس اليه وكانت المدينة فرحة أشد الفرح . وقد شاع فى كل أرجائها السرور لأن بطلا شابا قتل الوحش وأراح البلاد من شره ، وأنجى ابنة الملك من موت فظيع . ونادى المنادون فى المدينة أن الملك سيجزى منقذ ابنته خير الجزاء إذا تقدم اليه واجتمع عند القصر بعض الفرسان يدعى كل منهم زورا . أنه هو قاتل الوحش ومنقذ الأميرة ، ووقف قوم آخرون من الذين يحرقون الأشجار فى الغابة لتصير فحما ، وأدعوا كذلك أنهم هم الذين قتلوا الوحش وأنقذوا الأميرة . وحملوا معهم رءوس الوحش السبعة يؤيدون بها دعواهم . فأنكر الفرسان عليهم هذا الادعاء وطلبوا المكافأة لأنفسهم غير أن الأميرة كذبت دعواهم جميعا . وأخبرت أباها أن الذى قتل الوحش ونجاها بطل شاب حسن الهيئة غريب عن البلاد

ولم تكد تتم قولها حتى دخل الامير نور الدين منقذها من الوحش ؛ ومريح البلاد من خطره فلما وقف بين يدى الملك أخبره أنه هو الذى قتل الوحش المخيف وأراح البلاد من الضريبة القاسية التى كانت تقدم له من دماء الفتيات ولحومهن . وأخرج من جيبه السنة الوحش السبعة دليلا على مايقول .

وطارت الأميرة الى نور الدين فعانقته وقبلته وأيدت دعواه عند أبيها وأخبرته أنه هو الذى قتل الوحش وأنجاها ، وأن غيره من المدعين يكذب فيما يدعيه . وأخرجهم الأمير من القصر واستبقى نور الدين وحده . وعانقه عناق المحبة والاعتراف بالجميل . وسأله أن يطلب مايشاء من كنوز الملك . أو يأخذ نصف المملكة أو يتزوج الأميرة ويرث العرش بعد الملك

أجاب الأمير نور الدين : إننى من أبناء الملوك ياصاحب الجلالة . ولكن ملك أبى بعيد بعد المشرقين وإنى أود العودة إلى بلادى فنقبل شكرى على سخائك وكرمك فى الجزاء . ولا أطمع فى شىء أكثر من أربعين خروفا . وأربعين زجاجة ماء فأمر الملك أن يجهز بما طلب حالا .

عاد الأمير إلى النسر بالضأن والماء فلما رآه النسر قال له إنه سيحتاج إلى الطعام والشراب فى الطريق . فاذا صاح « كرك » قدم له الأمير لحما . وإذا صاح « كراك » قدم له شرابا . فاذا لم يسعفه بالطعام أو الماء حسب طلبه هوى به مسرعا إلى المكان الذى ابتدأت منه الرحله . حتى ولو لم يكن بينه وبين ظهر الارض إلا قليل ثم دعاه أن يستعد .

على جناح النسر

وضع الأمير الزاد والشراب على ظهر النسر وطوق رقبته برجليه وذراعيه . وطار به النسر صاعدا فى أجواز الفضاء مخترقا كثيرا من مختلف الأجواء . وظل صاعدا ، صاعدا ، صاعدا ، وكلما جاع صاح : « كرك » فيطعمه الأمير ، وكلما عطش صاح : « كراك » فيسقيه . وصعد ثم صعد ، حتى اذا لم يبق من المسافة الا قيل نفد الطعام وصاح النسر كرك ، كرك . كرك . والأمير لايجد مايقدم فأخذ خنجره من

قرابه . وقطع به قطعة من لحم ساقه ، وقدمها اليه ، فما كاد النسر يذوقها حتى أدرك أنها لحم انسان فحفظها تحت لسانه ، وصعد به حتى بلغا سطح الأرض

نزل الامير وحاول أن يتحرك فلم يقدر وتألم ألما شديدا ، فسأله النسر ما به ، فأخبره أنه لما نفد الطعام من لحم الضأن فى الطريق قطع جزءا من لحم ساقه وقدمه اليه ، وأنه عاجز الآن عن المشى لما فقده من لحم الساق .

فقال النسر : لقد أدركت ذلك ، وحفظت هذه القطعة فلم أمضغها ، وهاهى ذه تحت لسانى . ثم أخرجها من فمه ووضعها فى مكانها من ساق الامير فعادت سليمة صحيحة قوية واستأذنه النسر ليعود الى بلاده فأذن له ، وطار .

الامير نور الدين صانع الاثواب

لم يعد الامير الى قصره بل فكر فى عمل يكسب منه قوته ولو الى حين ، ورأى أن يذهب الى الخياط الخاص بالقصر يعمل عنده . ثم سار الى المدينة فلما دخلها ذهب الى دكان الخياط متنكراً ، وحياه ، وقال له : ان صناعتى الخياطة ، وأود أن أجد لى عملا فى دكانك . فقال له الخياط : يمكن أن تشتغل عندى صبياً ، وتبدأ عملك الآن اذا شئت . فبدأ عمله فى الحال وأخذ يجتهد فى عمله حتى أتقن صناعته اتقانا كبيرا .

عروس الامير تهتدى اليه

هذا ما كان من أمر الامير الصغير نور الدين منذ أن نزل البئر حتى عاد الى وجه الأرض محمولا على ظهر النسر . أما أخواه الأمير محمود والأمير شهاب فقد استمرا يتنازعان من أجل الأميرة الصغرى من الأميرات الثلاث اللاتى نجاهن الأمير نور الدين من قصر الغول . وعلم الملك بأمر النزاع بينهما من أجلها ، فرأى أن يزوجها من الأمير الأكبر محمود . ولكنه رأى أن يعلم رغبتها قبل زواجها ، فأرسل اليها وسألها فقالت إنها لا ترغب فى الزواج إلا من أمير يقدم لها ثلاثة أثواب عجيبة ، على واحد منها رسم السماء بنجومها ، وعلى الثانى رسم بمثل الأرض

وأزهارها وأشجارها . وعلى الثالث رسم بمثل البحار بأسماكها وحيوانها . .

مكث الملك ساعة لايتكلم عندما سمع هذا المطلب ، ثم وعد الأميرة أن يقدم لها هذه الأثواب الثلاثة العجيبة ، ودعا اليه الخياط الملكى ، وأمره أن يصنع هذه الأثواب كما وصفت الأميرة الصغرى .

فزع الخياط عند سماع هذا الطلب وسأل نفسه كيف يستطيع صنع هذه الأثواب وفكر فى ذلك طول يومه ، وحلم به طول ليله ومرت به الساعات والايام مسرعة ، وهو لايدرى كيف يخيط هذه الثياب . وبدا له الأمر مستحيلا وظن الملك إنما أمره بهذا ، وهو يعلم استحالته ليطرده من خدمته ومن عطفه .

أيصر الصبى على وجه معلمه مظاهر الحيرة والحزن . وسأله عما يحزنه ويحيره . فأخبره بما أراد الملك ، وبعجزه هو عن صنع هذه الاثواب وضحك الصبى عندما سمع الخبر ثم قال لمعلمه :

أهذا هو كل مايريد الملك ؟ إنه لعب أطفال . فقال له :

ماذا أصابك أيها الشاب .أطار عقلك فجننت؟

فرد الصبى :

لاشىء من هذا . وأولى بك أن تترك هذا الامر ، وتكل الى صنع هذه الاثواب .

فتيقظ معلمه وأجابه :

أتعنى بهذا الكلام — وأنت لاتزيد على أن تكون صبيا من صبيانى — انك أحسن منى ؟ اننى معلمك . والخياط الخاص لثياب جلالة الملك ، وأمهر الناس فى عملى .

فرد الصبى :

لا أعنى الا أننى أستطيع صنع هذه الاثواب الثلاثة . التى أمر بها الملك .

فرد معلمه ساخراً

ومتى ؟ بعد عشرين سنة على الاقل ، كما أتوهم .

فقال صبيه : لاعشرين سنة ولا سنة واحدة ، ولكن الليلة وعند الصباح تجدها معدة كاملة

فسأله معلمه ، وقد بدأ يثق بما يقول ويظنه جادا فيه : وان كان الشك مازال قوياً فى قدرته على العمل .

وأين تجد النسيج ؟

فأجابه الصبى بأنه لايحتاج الى نسيج ولا خيط ولا أبرة ، وانما يريد زجاجة من شراب وطبقا مملوءا بالبندق ، وأن يغلق عليه باب غرفته حتى الصباح ، وعندئذ يجىء معلمه الخياط ، ويتسلم الاثواب كما يريد الملك أن تكون

عاد الشك قويا جدا عند الخياط وغاظه أن يجرؤ صبيه على شىء يعجزعنه هو وقال لنفسه ، ان هذا الصبى جاهل قدر نفسه ، وهو يدعى مالا يستطيع ولا بد من كشف عجزه ، وإعطائه ما يطلبه وانتظار النتيجة فى الصباح

جاء المعلم الخياط لصبيه — وهو الامير نور الدين كما تقدم — بكل ما طلب منه ، وأغلق عليه باب عرفته ، وسهر الامير حتى أكل البندق وأتى على ما فى الزجاجة من شراب ، ولم يشغل نفسه أبدا بالاثواب الثلاثة . وعندما أضاء النهار طرق المعلم باب الغرفة يسأل صبيه — وهو الامير نور الدين — ماصنع فى الأثواب فطلب منه أن يعود عند اشراق الشمس كما وعده ، فلما انصرف من عند باب حجرته كسر البندقات الثلاث التى أعطته اياها الاميرة الصغرى يوم أن قتل الغول ونجاها هى وأختها من شره وأخرج الأثواب المطلوبة كل ثوب من بندقة ورآها واستيقن أنها ما يطلبه الملك

عاد المعلم عند الاشراق ففتح له صبيه الباب ، وأراه الاثواب : واحد منها يمثل السماء بنجومها الزهر ، والثانى يمثل الارض وما فيها من زهر ، والثالث يمثل البحر وما فيه من حيوان .. فلما رآها أخذته غاشية من الذهول والحيرة والسرور والفرح. وعجب من جمال الاثواب ودقة صنعها ، وبهاء منظرها وظن نفسه فى حلم ، أو أن صبيه من الجن الذين سمع بهم فى القصص . ولمس الاثواب مرة بعد مرة ، فلما استيقن انها حقيقية طار بها الى القصر ، وقدمها الى الملك .

أخذ الملك الاثواب الى الاميرة فسألت عن صانعها الحاذق المقتدر فأخبرها المعلم الخياط أنه لم يكن يستطيع الوفاء بما طلب منه الملك لولا صبيه الذى صنعها فى

ليلة : فقالت الاميرة : انى ليسعدنى جداً أن أرى هذا الصانع وأظهر له شيئا مما فى نفسى من الاعجاب والسرور . فاذهب اليه وأحضره .

لقاء الاحباب

فأحضر المعلم صبيه إلى الاميرة ، فما ان رأته حتى صاحت : الامير نور الدين ! حبيب القلب ! أنت الذى أعد هذه الثياب ! انى أمرت بها وأنا أعلم أنه لا يمكن لغيرك أن يعدها . وقد حدثنى قلبى أنك قريب منى ، فى المدينة التى أنا فيها . فقلت لعل طلب هذه الاثواب يكون سببا فى اللقاء ، وقد تحقق أملى . ولن أتزوج سواك

وعرف الملك ابنه نور الدين فسأله قصته فأخبره بما كان منذ أن نزل البئر وتركه أخواه الى أن عاد ، فغضب الملك وكاد يقتل ابنيه لولا ضراعة نور الدين اليه أن يصفح عنهما ، ويزوجهما من الاميرة الكبرى والوسطى .

وفى اليوم التالى أخذت المدينة زخرفها ولبست أبهى زينتها ، وزف الامير نور الدين الى عروسه الاميرة الجميلة ، وعاشا معا فى هناءة ورفاهية وأعقبا بنين وبنات .

عبد الرازق حميدة
المدرس بدار العلوم

الصداقة والخصومة

واثرهما فى الحياة والادب

للأستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب

— ١ —

أرجع القهقرى بالذاكرة ثلاثين سنة ، فألمح فى طفولى المرحة ، صبية متآخين متحابين ، قد جمعت بينهم أواصر القربى ، وتقارب الميلاد ، وأوقات الفراغ ،وكرة المضرب . لا يحمل الواحد منا فى صدره البرىء ،غير محبة الوالدين ، والتعلق بالزملاء اللاعبين الذين يحاول الغلبة عليهم . أو الذين يستعين بهم فى التغلب على غيره ، فاذا ما اجتمعنا فى المكتب ، طغت على الذكى منا سيطرة النبوغ واستعلاء العقل ، بينما يطغى على قوى البنية منا جبروت القوة وسلطان الجسم ، وكثيرا ما كانت تحدث صداقات أو عداوات !!

فى هذه الفترة من الزمن — والطفل فى السابعة من عمره — لا أستطيع أن أحكم حكما صحيحا على وجود الصداقةأو الخصومة ،إلا أننى أؤكد أن الاشخاص الذين ملت اليهم بعواطفى فى هذه السن ، لا أزال أذكر بالاعزاز عهدهم ولا أزال أحمل فى طوايا نفسى لهم حبا واخاء وأؤكد أيضا ، أن الآخرين الذين صدرت منهم

فى حقى كلمة جارحة . أو إيذاء بالضرب أو كانوا مسيطرين بقوتهم ، منتهزين فرصة ضعفى ، ونحول جسدى، هؤلاء لا أفتأ أنظر اليهم نظرة فيها شيء من السخرية إلا من تربطنى بهم علائق القرابة — كما أنى لم أتخذ منهم فيما بعد أصدقاء

لم نكن فى الصغر محتاجين إلى الاخوان إلا بمقدار ما يبعث حب اللعب فى نفوسنا من البهجة والسرور ، لم نكن فى حاجة إلى منفعة ، اكتفاء بما فى بيوتنا من النعمة ، ولم نكن لنستشعر الحزن والالم حتى نطلب العون عليهما من الاصدقاء ، ولم نتذوق طعم الفضيلة والواجب والخير ، حتى نصطفى إخوانا فى كل أولئك

غير أن هناك أناساقد امتزجت قلوبنا بقلوبهم ، واطمأنت نفوسنا الى نفوسهم واجتمعت أهواؤنا وأهواؤهم ، فبادلناهم فى تلك السن المبكرة ، عواطف محبة ، اعتقد أنها كانت بذورا صالحة . لما انعقد بعد ذلك بيننا وبينهم من الصداقة

— ٢ —

واغتربت عن أهلى طلبا للعلم والمعرفة ، ولقيت طلابا صحبت منهم من يقاربنى فى السن أو فى العقل ، أو من ينتسب الى بلدة قريبة من بلدتى ، أو من تتفق رغائبه ورغائبى ، ولقيت طلابا آخرين يحملون فى صدورهم الحسد والحقد لبعض الناس ويكثرون من التكلم فى شأن سواهم على غير مسمع منهم أو مشهد ، فتجنبتهم ، ولم أتخذ منهم خليلا .

وطالت أعوام الدراسة وامتدت ، واختلفت معاهد العلم وتنوعت وتنقلت من مدينة إلى مدينة ، وتخلف من الاخوان من تخلف ، وأتم الدواسة منهم من أتم واستقبلت إخوانا آخيتهم من جديد ، وطلابا لم آبه لشأنهم ، كما هى الحال عند غيرى من الناس .

الاخوان الذين أصطفيتهم فى سنى الدراسة ، — وهم غير المعارف ، يسرنى أشد السرور أن اراهم . أو أرى من يراهم ، أو أن أسمع خبرا سارا من جهتهم ، وبعبارة اخرى لهم فى نفسى منزلة القرابة القريبة ، المعمورة بالمودة والمصافاة ، سواء منهم من لم يتم ، ومن أتم ، وسواء منهم من بعد عن العين ، ومن قرب منها

— ٣ —

وانتقلت من الحيز الضيق ، إلى أفق الحياة ، حياة العمل ، وحياة المجتمع ، وحياة العقل والقلب والبيان .

والإنسان لا يعمل مستقلا ، بل إن له شركاء ، وإن عليه رؤساء ، أما شركاؤه ، فيسره أن يبزهم ، كما يسرهم أن يفوقوه ، وأما رؤساؤه فيهمه أن يرضوا عنه ويقدروه ، كما يهمهم أن يؤدى واجبه فى طاعة لهم ، واحترام لآرائهم ، على أن يكون عرضة للعقاب إن بدا منه ضعف ، أو ارتكب إحدى الغلطات ! ! فهو لذلك قلما يتخذ من بينهم صديقا .

الموظف — بحكم الوظيفة — يقضى وقتا طويلا بين هؤلاء ، وهو مضطر — بحكم الإنسانية — أن يختار من هذا الوسط من يأنس منهم — مع وجود روح التنافس — نبل الحس ، ورقة الشعور وكرم المحتد ، وصفاء النفس ، وعذوبة اللسان . أو من فيه صفات مقاربة لصفاته الشخصية من نواحى الميول والأخلاق .

وكلما كان الوسط الذى يعمل فيه الانسان ، خليطا من أناس مختلفى الثقافة ، متباينى الأهواء ، كان ذلك أدعى الى الاحتراس والحيطة ، فى اصطفاء من يصطفى ، ومؤاخاة من يؤاخى . الا أن الشخص المهذب كثيراً ما يكون مرموقا بعين الاجلال والمحبة ، يود كل من زملائه أن يكون له صديقا ، فهم يقابلونه بالبشر ، ويستمعون لحديثه ان تكلم ، ويعاملونه معاملة تشعره بمنزلته ، وتدعوه أن يكون معهم على الدوم ، رجلا مثاليا كريما ، غير ان المعاملة شىء ، والصداقة شىء آخر .

أما البيئة المتقاربة فى العقليات والمعارف ، والرغائب والآمال ، فانه يسهل على الانسان فيها أن يختار من يوافقه من الاخلاء ، ويتجنب من لا يرى فى قلبه ميلا ولا هوى اليه . ومع ذلك . فما أكثر ما يتعرض الأصدقاء فيها لتطبيق بيت ابن الرومى :

من جور إخوان الزمان سرورهم .·. بتفاضـــل الأحوال والأخطار

وبحكم العمل ، ينتقل الموظف من مكان الى مكان ، ويضطر الى أن يصاحب

من جديد أنا ساغير الذين أصفاهم بالمودة والاعزاز ، وتمر الايام والشهور والاعوام ويبلى من الذاكرة ما يمكن أن يتطرق اليه البلى من أسماء الزملاء ، وتتركز فى القلوب على مر الايام والشهور والاعوام ، صداقة من منحناهم كل عواطفنا وحبنا ، اننا نهش لذكراهم كلما مرت على خواطرنا سانحة ، ونبتهج لما يصلنا عنهم من خير ، ونبتئس اذا فهم شيء من السوء والمكروه .

— ٤ —

والانسان موجود اجتماعى كما يقول أرسطو — فهو لا يعيش فى المنزل والمكتب فحسب . وانما يتراوح بين النوادى والمجتمعات ، ويرحل من جهة الى أخرى ، ويلقى أصنافا من البشر ، مختلفين فى طباعهم ومنازع أهوائهم ، وألوان ثقافاتهم ، وقد يكون من بينهم أناس أرضياء المحضر — كما يقول أرسطو أيضاً — فهو يأنس اليهم ، ويمنحهم من ذات نفسه محبة واكبارا متى وجد التلاؤم الخلقى بينه وبينهم . بينما يرى أشخاصا آخرين ، فلا يأبه لهم ، ولا يهمه من أمرهم شيء ، بل انه لا يحاول مهما جلس اليهم ، أن يوجد بينه وبينهم سبباً من أسباب التعارف .

الصلة التى تنعقد فى هذه الاوساط ، لا تتأتى بسهولة ، ولا تحكم أواخيها الا بمرور زمن طويل وتجارب عديدة . فاذا ما توثقت عراها ، كانت من أعمق أنواع الصداقات ، وأبقاها على مر السنين .

— ٥ —

من هم هؤلاء الذين تستطيع قلوبنا أن تمنحهم كل ما لديها من تبجيل وتقدير وحب ، وتحتفظ على مرور الزمن بجده مودتهم ، وما عسى أن يكون لهم من الاثر فى حياتنا وآدابنا ؟

لا يتشابه مخلوقان تمام الشبه من جميع الوجوه أبدا . بل لكل ذاتية خاصة يمتاز بها عن غيره من المخلوقات ، وكما تختلف ملامح الاوجه ، ونبرات الاصوات ، تختلف خلجات القلوب ، وموازين العقول ، وكما تتقارب تلك فى رأى العين ، وحجاب السمع ، تتقارب هذه فى مجرى الشعور ، ولون المعرفة

ونحن — بالطبيعة — لانصادق من يشاركنا فى لون البشرة ، أو فى سعة العين وضيقها ، أو فى قنو الانف وانخنافه ، أو فى رخامة الصوت وجهارته ، بل اننا نصادق من يمس احساسنا ، ويشعر كما نشعر ، ويفهم عنا ان تحدثنا ، ويفهمنا اذا تكلم ، ويفى لنا فى السر والعلن ويبثنا ذات نفسه ان كرثه أمر ، كما نستطيع أن نشكو اليه بثنا وحزننا ان أصابنا ماننكره .

— ٦ —

ولا ريب أن لاصدقائنا أثراً عظيما فى حياتنا الخاصة ، فاننا نرغب أشد الرغبة فى أن يشركونا فى ألوان السعادة التى تحيط بنا ان أصابنا خير . بل ان سعادتنا لا تتم الا بوجودهم الى جنبنا ، ينفحوننا من عطر مودتهم ، ونبل قلوبهم ، مايسمو بعواطفنا الى أعلى مراتب البشر والحبور .

واذا ضاقت بنا الحيل ، وأعيانا المال ، واشتد بنا الزمن ، وتوالت علينا أحداث الدهر ونوائب الايام ، فاننا كثيراً مانلجأ — ولو مرغمين — الى هؤلاء الذين نتوسم فيهم من اخواننا فضلا من نعمة ، يقاسموننا اياه عن طيب خاطر منهم ، وحسن مؤاساة ، وجميل ما عون . فى غير من ولا أذى ، ولا تعرض لجرح عزة .

وينتابنا المرض ، أو نصاب فجاة بحادث مروع أو يتعرض عزيز من أعزائنا لمكروه ، فيكون فى عيادة أصدقائنا لنا وسؤالهم عنا بلسم لقلوبنا أنجع من الدواء علاجا ، وخير من طب الاطباء نتيجة ، اننا نرتاح عندما نراهم ، ونحس ببرد العافية يتمشى فى أوصالنا ، ولا نشعر . ونحن ننظر اليهم مهما اشتدت علينا وطأة المرض ، ومهما روعتنا الحوادث ، الا بأحلى ماتتذوقه النفوس من ضروب البهجة وألوان السرور .

ونحن نستشيرهم فى كل مايهمنا من أمورنا ، ونقلب معهم أوجه الرأى حتى نطمئن إلى ماينبغى سلوكه من المذاهب المتشعبة ، ونوقن — إذا أخطأنا عن مشورتهم أننا سعداء بهذا الخطأ لأنه نتيجة لآراء أضفى عليها الاخلاص ، والصراحة والصدق خير مايضفى من لآلاء ورواء .

وإذا ملنا عن طريق الهدى ، وسولت لنا نفوسنا النزاعة إلى الشر ، أمرا خارجا عن حدود الأدب والدين والفضيلة ، فاننا لانجد أصدق من النصيحة يسديها الينا صديق كريم النفس . قوى الايمان ، شديد الحب للخير ، فلا نلبث أن نلقى قلوبنا منصاعة إلى هديه ، منقادة معه الى سبيل الرشاد .

ذلك بعض أثر الاصدقاء فى الحياة النفسية ، أما فى الحياة العملية ، فاننا كثيرا ما نرى أصدقاء يسلكون منهجا سويا ، وطريقا واحدا ، فيؤسسون الشركات . وينشئون المصانع والمعامل ، والمتاجر ، ويشتركون فى التأليف أو التعليم ، أو المحاماه . أو الزراعة . أو فيما يشاءون من مناهج الحياة وطرقها وينجحون فى كل عمل يقولونه نجاحا منقطع النظير . لأنه نجاح قوى متضافرة من الحب والصدق والصفاء

— ٧ —

وتدب عقارب النميمة بيننا وبين أصدقائنا . وتقع قلوبنا فى حيرة من الأمر قد تنتهى إلى قطيعة أو جفاء . فيجىء دور البيان والأدب فى صورة عتاب رقيق أخاذ بمجامع القلوب . فلا يلبث أن يؤثر تأثيره السحرى . فيعود الأصدقاء إلى أحسن ما كانوا عليه قبل من المودة والتواصل .

ويفارق الخليل أخلاءه إلى مكان قريب أو سحيق فيأسفون لفراقه ويقيمون له حفلات يجتمعون فيها معه إلى موائد الشاى والخطب والأشعار . فيمتدحون مناقبه ومزاياه . ويشيدون بفضله . ويذكرون الصداقة واعتزازهم بها . وحرصهم عليها وأن الزمن لن ينال منها مهما تقدم . ويشكر لهم الصديق المكرم . نبل عواطفهم فى قصيدة ينشدها أو خطبة يلقيها .

وإذا ما باعدت الأيام بين الصديقين . فانهما كثيرا ما يتلاقيان على صفحات الرسائل التى يدبجها كل منهما لأخيه . باثا شوقه . واصفا حاله . شاكيا ظروف زمانه . مؤكدا عهد الوفاء والاخاء . ويجىء الرد ملاحظا فيه الى كل أولئك . شعور فياض بالغبطة وأسلوب موفق بروائع الأدب شعرا كان أو نثرا

وتنتهى الحياة بالناس الى آجالهم المحدودة . ومصايرهم المحتومة . ويبكيهم أقرباؤهم بالدموع والعبرات . بينما تدمى لمصارعهم قلوب أصدقائهم . ويرسلون فى مراثيهم لهم . زفرات تلظى بالوجد والحرقة . وتندلع بالفجيعة والالياع . ويفيد الأدب من وراء ذلك . وتنمى ثروته العاطفية بماء فيه روح للقلوب المكلومة ، وعزاء للأفئدة المقروحة . وشفاء للنفوس الموجعة .

— ٨ —

دونت ما أشعر به فى طوايا نفسى من العواطف الخاصة بالصداقة . وأعتقد أننى لم آت بجديد . فكل انسان يحس ما أحسست . ويخالجه من النوازع ما خالجنى وهذا موضوع وفاه علماء الاخلاق حقه من البحث . من حيث ماهية الصداقه وأقسامها الأصيلة ومن هم الذين يصلحون أن يكونوا أصدقاء ، وما الحقوق التى للصديق على صديقه .

أما تكوين الصداقة بالأوصاع الحيوية : من الدين والسياسة . والعلم . والأدب . والفن . وصداقة الأسر . والملوك والشعوب . وأثر ذلك جميعه فى المذاهب العقلية والحياة الأدبية من شعر ونثر . والحياة الاجتماعية من تقدم وخمول والحياة الاقتصادية من رواج وكساد . وما يتصل بكل أولئك من أسباب ونتائج فهذا مانحاول بقدر الامكان توضيحه وتبيانه .

— ٩ —

الصداقة رابطة اجتماعية تنعقد بين طرفين . والناس منهم الخير بطبعه . الفاضل بفطرته السليم جوانب الصدر ، المنطوى على حب الله فيمن خلق - ومنهم الشرير بالجبلة الخبيث بالسليقة . المجنى الأضالع على الحقد والحسد . الذى لاتستطيع اسمى المذاهب الاخلاقية أن ترده الى رشاد . ومنهم بين بين : كما قال الحزيمى

الناس أخلاقهم شتى وان جبلوا * على تشابه أرواح وأجساد
للخير والشر أهل وكلوا بهما * كل له من دواعى نفسه هاد
منهم خليل صفاء - ذو محافظة * أرسى الوفاء أواخيه بأوتاد

ومشعر الغدر - محى أضالعـــه * على سريرة غمر غلها باد
مشاكس جذع ، جم غوائله * يبدى الصفاء - ويخفى ضربه الهاوى
يأتيك بالبغى فى أهل الصفاء ولا * ينفك يسعى باصلاح لإفساد

هذا التباين الواضح فى طبائع البشر . جعل الحكماء والفلاسفة . والشرائع والأديان تنظر الى الخيرين الفضلاء نظرة اجلال وتكريم . بينما نراها نصب مقتها وجحيم غضبها على أولئك الأشرار الأراذل . وتود أن تمحو ماعلق بنفوس الفريق الثالث من ظلمات الرذيلة . لتكون جوانبها كلها وضاءة بأنوار الفضائل الساطعة

ولما كانت الصداقة رابطة بين اثنين كان من الضرورى وجود تلاؤم خلقى بينهما غير أن أفلاطون يرى أن هذه القاعدة العنيفة « الشبيه يبحث عن الشبيه » ليست صادقة الا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لايستطيع ان يعقد صداقة حقيقية لامع الخير . ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لاثبات له على حال . متغيرا . متخالفا مع نفسه . مضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك معه - صار عدوه حتما - لأنه سيتعدى عليه بعض الشىء - وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين؟

ولكن أليس من الجائز ان يتبادل الأشرار فيما بينهم المنافع - فيعرف بعضهم بعضا ويحتوى كل منهم على رفيقة - فتوجد صداقة مماثلة لصداقة الطبقة المتوسطة ؟

يعود افلاطون - ومذهبه مذهب مثالى رفيع — فيقرر ان الأشرار لايستطيعون ان يأتلفوا زمنا طويلا - فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة فانها لاتلبث ان تباعد بينهم بل المنفعة التى تساعدها الرذيلة - تسلحهم بعضهم على بعض - وتصبح الجمعية وليس فيها الا اشرار - غير مستطيعة ان تبقى يوما واحدا

على ضد ذلك الفضيلة تدعو بالطبع بين القلوب التى تساوت فى حبها الى المودة والرحمة - وهى كفيل السلام فى المملكة ، ان الأهالى مرتبطون فيما بينهم - لأنهم يسعون جميعا الى الخير الذى فرضوه واجبا مقدسا على انفسهم طول حياتهم

ولكن قلبا كريما لا يكتفى بهذه الرعاية - التى يشعربها طبعا نحو الذين يشابهونه

بل الفضيلة تلهمه احساسا اصعب من ذلك واعز - فانه لما كان لا يقصر شأنه فى المعاملة على الاختيار - كان لازما عليه ان يعرف كيف يعيش مع الاشرار ولما كان محظورا عليه ان يأتى الشر - كان لا يعمل السيء لأعدائه - كما لا يعمله لأصدقائه - فانه يعرف ان الشر الذى يقع على الاشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم - وما فعل الشر - حتى بالاشرار الا قاعدة لا يجرى عليها غير الطغاة او المجانين - اما الرجل الحكيم - فانه على الضد من ذلك - يلطف الشرير بما يعمله له من الخير ، او على الاقل بما تضربه له من المثل الصالح من عدالته

ذلك اساس الحياة الاجتماعية عند افلاطون - وخلاصة رأيه - ان الفضيلة التى تتفتح أزهارها فى كنف العدل والرعاية - هى الرابط الحقيقى للجمعية الانسانية وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة الا بين الاخيار - وان الفضيلة هى شرط للسعادة فى الجمعية

— ١١ —

اما أرسطو - فقد افرد لنظرية الصداقة الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه العظيم علم الاخلاق الى نيقوماخوس

غير ان هناك ابوابا من الكتاب الرابع ينبغى الرجوع اليها قبل الكلام على الصداقة لانها تتصل بها اتصالا وثيقا

جميع الافعال التى مصدرها الفضيلة جميلة - وكل فعل مطابق للفضيلة ملائم هذا كلام حق وجميل وهو قريب جدا من كلام افلاطون

غير ان ارسطو يوضح بلباقة وكياسة ومهارة اخلاق الناس فى المجتمعات فيقسمهم ثلاثة اقسام : فيقول

فى العلاقات المتنوعة التى بين الناس فى حياتهم المشتركة - سواء فى المحادثة البسيطة ام فى الاعمال يوجد اناس يسعون الى ان يكونوا مقبولين لدى الجميع تأخذهم رغبة الارضاء بأن يقروا دائما كل شيء - فاذا لم يقصد الشخص فيهم من وراء الارضاء - الا ان يكون مقبولا فانه يسمى المساير فان قصد ان تعود عليه منفعة

شخصية كالاثراء او الحصول على الاشياء التى تسببها الثروة فذلك هو التخلص

والنوع الثانى . أناس على خلق مضاد لأولئك ، يأخذون بالمعارضة فى كل الأشياء، ويجدون كل مايصنع رديئاً ، وصاحب هذا الخلق ، هو الإنسان الصعب الشكس .

وكلا هذين باللوم جدير . والممدوح هو الوضع الوسط ، الذى يحمل المرء على أن يقبل أو يرفض من الناس أو الأشياء ماينبغى قبوله أو رفضه .

هذا الوضع يشبه الصداقة كثيراً ، لأن الرجل الذى نجده فيه : هو فى أعيننا بحيث نكون مستعدين أن نسميه صديقا حقا إذا جمع إلى معروفه شعوراً بالميل لنا. ولكنه يخالف الصداقة ، فى أن قلب ذلك الانسان لايشعر بعاطفة البتة . وأنه ليس مرتبطا جد الارتباط بأولئك الذين يلتقى بهم ، لأنه ليس لحب أو لبغض يصطنع الأشياء كما ينبغى بل لأنه هكذا خلق .

انه مع ذلك يكون مختلفا فى علاقاته مع الأشخاص أولى الأقدار ، ومع الناس العاميين ومع الأشخاص المعروفين لديه قليلا أو كثيرا . انه يرعى بهذه العناية نفسها جميع الفروق الأخرى ، مؤتيا كل ذى حق حقه ، ساعيا من أجل ذلك فى إدخال السرور على الغير ، متقيا الايذاء ، ولكنه يقصد دائما الجانب الذى يمكن أن تنتج منه نتائج خطيرة ، وأعنى بذلك أنه لايبحث إلا على الجميل والنافع ، وهو عارف عند الحاجة أن يحدث صغار الآلام تمهيداً فيما بعد للذة كبرى .

— ١٢ —

أما فيما يتعلق بتقدير الانسان لنفسه . من حيث اسباغه عليها صفة من الصفات التى تجعل الرجل نابه الذكر من غير استحقاق ، أو من حيث تناسيه صفة كريمة فيه ، أو من حيث اعطاؤه نفسه حقها من غير غلو ، فان أرسطو يوضح ذلك. بقوله:

الرجل الذى بلا مسوغ يبالغ فى الاشياء لفائدته ، يمكن أن يعتبر رذيلا . فان كان كذبه حباً فى الكرامات أو رغبة فى الشهرة ، فانه ليس جد أثيم . فان كذب لنيل المال ، أو مدفوعا بطمع من هذا النوع ، فقد فقد شرفه على وجه أكثر خطورة من الحال الاولى .

هؤلاء الذين يكذبون ليحصلوا على شهرة ليس غير . يظهرون بمظهر الفخر الصلفاء ، وينسبون بالكذب إلى أنفسهم ميزات تستدعى ثناء الناس أو اعجابهم المسبب على الغيرة . وهؤلاء ، سرعان مايجرون على أنفسهم الاحتقار الذى هم به جديرون.

أما الذى يأبى على نفسه ماله من الخلال الحسنة ، أو يصغر من قدرها ، أو يميل إلى البخس دائما من قيم الاشياء ، فانه يظهر على العموم بأنه من خلق أحب وألطف ، إنه يريد أن يفر من كل ما يمكن أن يفضى الى الشهرة .

أما الرجل الذى هو فى عيشته وفى أحاديثه يقول الحق ، دون أن يكون الامر متعلقا بمنافع جدية ، بل لان ذلك فطرة فطر عليها ، فانه فى الواقع رجل نبل ، وإنه إذ يتكلم عن نفسه ، يسند اليها ماله من صفات الخير فلا يجعلها أكبر ولا أصغر مما هية . وهذا الخلق هو على الحقيقة أهل للاحترام .

— ١٣ —

وفى الحياة أوقات راحة ، يلزمنا فيها مايسلينا ، وفى تلك الاوقات يوجد أسلوب من أساليب العشرة ، رقيق الحاشية ، حسن الذوق . حدده أرسطو بأنه ينحصر فى قول ماينبغى كما ينبغى ، وفى استماع قول الغير بهذه القيود ، وقسم الناس أيضاً الى ثلاث طبقات :

فمنهم من يدفعهم ديدن الاضحاك الى البحث عن الهذر فى كل مقام . قاصدين أن يضحكوا أكثر من أن يقصدوا ألا يقولوا إلا الاقوال النزيهة المناسبة ، وألا يجرحوا من يمازحونه . ان هذا الذى لايعرف أن يقاوم لذة السخر ، لايبقى على نفسه كما لا يبقى على غيره ، ولكى يحرص على الضحك ، يستبيح لنفسه أشياء لايفوه بها رجل شريف . بل لايطيق سماع بعضها : وذلك الماجن ، السيىء . الثقيل الروح .

وفريق على الضد من ذلك . لايجدون قولا يسر ، ويحقدون على الذين هم أكثر منهم استعدادا للتنكيت ، أولئك هم قوم أفظاظ غلاظ ، غرباء عن علاقات الجمعية فى أوقات ، السرور لايأبهون لها ، ولا ينتفعون بها .

أما الذين دق ذوقهم فى المزاح . فانهم أناس أرضياء المحضر ، يمكن أن يقال

انهم من طبع مرن لين ، لان هذه الصفات هى على وجه ما حركات أخلاقية . فالمهارة أو سلامة الذوق . هى مزية من مزايا الكيف الوسط ، الذى تمدحه فى هذا النوع . فالرجل ذو الطعم ، يعرف أن يقول وأن يسمع ما يناسب الرجل كل الرجل. بحيث لا يؤذى من يسمعه وبحيث يلذ على ذلك لسامعه .

وهناك حالات تدعو الى ثورة النفوس، وانفعال الاحساس ، تظهر فيها الطبائع البشرية بمظاهر ممدوحة أو مذمرمة ، من حيث الغضب والحلم والبلادة ، ولم يفت ذلك أرسطو ، بل لقد رسم بقلمه هذه الصور الاخلاقية رسما بديعا حيث يقول :

ان الناس الذين هم على خلق شرس ، يغضبون ممن لا يستحقون الغضب ، وفى فرص لا ينبغى فيها الغضب واثهم ليجاوزون فى غضبهم الحد اللائق ، نعم انهم يهدءون كذلك بغاية السرعة . وهذا هو أحسن ما يصنعون ؛ فاذا وقعوا فى هذا الخطأ ، فذلك لانهم لا يعرفون أن يكظموا غيظهم انهم يستشيطون غضبا فى الحال باظهار شهوتهم ، بسبب ما بهم من شدة فى حده الاحساس الذى يهيجهم على ذلك فالغضاب هم أو لوحدة مفرطة ، فهم يهيجون لكل مناسبة . وضد كل انسان . ولكن الحقاد هم أصعب رجوعا إلى الصفاء : وغضبهم يبقى زمنا أطول ، لأنهم يعرفون أن يضبطوا إحساسات قلوبهم . ولا يهدءون إلا بعد أن يأتوا من الشر مثل ما أوتوا فالانتقام هو الذى يسكن غضبهم لأنه يحل اللذة محل الألم ، الذى كان ينهش قلوبهم . وما لم يشف عليهم فلا يزال على قلوبهم ثقل يضايق أنفاسهم ، ولكونهم يحرصون على عدم إظهار شىء فلا أحد يستطيع علاجهم بالاقناع وإنه لابد من زمن لأجل أن يقرض أحدهم غضبه فى نفسه ، أولئك هم شر الناس على أنفسهم ، وعلى أشفق أصدقائهم بهم .

أما أولئك الذين يبقون بلا غضب للأمور التى يلزم الشعور فيها بغضب حقيقى فانهم لا يمكن أن يعتبروا إلا بلداء ، ان هذا الذى لا يغضب . لا يظهر أن له احساسا ولا يعرف أن يثور عند ما ينبغى بل يمكن أن يظن به أنه لا يعرف أن يدفع عن نفسه عند الحاجة . مادام لا يشعر بشجاعة ، غير أن هذه الحال إنما هى جبن حقيق

بعبد يحتمل الاهانة تقع عليه ويترك أقرباءه موضوعا للاعتداء بلا جزاء

حينئذ هذا الذى يتمشى مع الغضب فى الغرض المناسبة . أو ضد النـاس الذين يستحقونه . وهو على ذلك يتمشى على الوجه اللائق . وفى الحين اللائق . وطول الوقت اللائق ، ذلك يجب أن يقابل باقرارنا إياه ، فليعلم حقا أن هذا هو الحلم الحق . إذا كان الحلم أهلا للثناء.

— ١٥ —

عندما نريد أن ندرس أخلاق من نريد أن نتخذهم أصدقاء ، ينبغى أن نرجع إلى هذه الفصول الأخلاقية الدقيقة المحكمة . التى وضعها أرسطو ، لنتبين إلى أى حد يمكن تطبيقها عليهم ، ولنستطيع فيما بعد ، أن نقبل أو نرفض من الناس من ينبغى قبوله أو رفضه ، حتى لا نتخدع ولا نصحبهم على دخن ، ولا نمنح قلوبنا أناساً لايستحقونها . فندم آخر الأمر ، ونقطع حبال مودتهم مرغمين ، ونرمى بالغدر والعقوق ، بينما نكون نحن فى منتهى الاخلاص والوفاء .

عبد الوهاب عنانى الخطيب

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تخليد ذكرى الخديو اسماعيل
٤	اسماعيليات أبى النصر : للأستاذ السباعى بيومى
٢٧	أعلام البيان فى عصر اسماعيل : « عمر الدسوقى
٥٠	الوحدة العربية فى القرن التاسع عشر : « محمد أبو بكر ابراهيم
٦٦	قصة عضو بعثة : للدكتور ابراهيم أنيس
٧١	من حكايات الاطفال الامير نور الدين : للاستاذ عبد الرزاق حميده
٨٣	الصداقة والخصومة : « عبد الوهاب عنانى الخطيب